

أدهم شرقاوي

" قس بن ساعدة "

kalemat

رسائل من القرآن

أدهم شرقاوي

"قس بن ساعدة"

2021

kalemat

الإهداء

تَعزِمُ على الذَّنب فتمُرُّ بكَ جنازةٌ فترتدع
تُغريكَ قوتُكَ بظلم ضعيف فتمرضُ فتعتبر
تُفرطُ الثقةَ بالناسَ فيأتيكَ الخذلان فتتعظ
تُذنبُ فيضيقُ صدرُكَ فتسمعُ آيةً فتنشرح
تحتارُ في أمرٍ فتسمعُ حديثاً نبويّاً فتهتدي
كل هذه رسائل من الله
هذا كتاب بعنوان"رسائل من القرآن"
مُهدى إلى كل الذين يُؤمنون أن الله سبحانه
دوماً يُرسل إلينا الرسائل ليعيدنا إليه!

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

يا اللهِ،

إني لا أُصلّي لك كما يليق بِك،

ولا أصوم كما كان يفعلُ داود،

ولا أصبر إذا مرضتُ كما صبر أيوب،

ولا أسبّح بحمدك تسبيح يونس في بطن الحوت،

ولا آخذ ديني بقوة كيحيى،

ولا أغضُّ بصري كما غضّ يوسف كل جوارحه،

ولستُ متسامحاً لحد القول: اذهبوا فأنتم الطلقاء،

ولكني مثلهم يا الله أحبك!

﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾

إن جَهِلَ الناس فضلكَ فلا تبتئس،
يكفي أنّ الله يعلمُ من أنتَ!
لن يزيدَ شيئاً في ميزان نوح عليه السلام أننا عرفناه،
ولن ينقصَ شيء في ميزان أنبياء لم يخبرنا الله عنهم لأننا جهلناهم،
كان في جيش هارون الرشيد عشرون ألف مجاهد،
لا يكتبون أسماءهم في ديوان الجُند،
فلا يأخذون رواتبهم كي لا يعرفهم أحدٌ إلا الله!
نعى السائب بن الأقرع إلى عمر بن الخطاب شهداء المسلمين في نهاوند،
فعدَّ أسماءً من أعيان الناس وأشرافهم ثم قال:
وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين،
فبكى عمر وقال: **وما ضرهم أن لا يعرفهم عمر، إن الله يعرفهم!**

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

كلمـــا أذنبتَ ذنبًا قُـــل في نفســك:
خسرتُ معركة، ولم أخسر الحـــرب!
لا تبتئس، ورمّم نفسك بوضوء وركعتين،
استغفرْ على الأصـــابـــع التي أذنبـتْ،
واقرأ القرآن بنفس العين التي نظرت إلى حرام،
أنين التائبين عند الله كمنـــاجـاة الطـائعين،
وما سمى نفســه الغفور إلا لأنه يريدك أن ترجع!

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾

لـــن ينفعكَ مــدحُ المــادحين،
إن كانوا قد مدحوكَ بما ليسَ فيكَ!
ولـــن يضركَ قـدحُ القـــادحين،
إن كانوا قد ذموكَ بمـــا ليسَ فيكَ!
ومهمـــا بلغَ الإنسان من الصلاح فلا بد له من كـــاره،
حتى الأنبياء لم يحبهم كل النـــاس!
ومهمـــا بلغ الإنســـان من الفجور فلا بد له من مُحبّ،
حتى فرعون والنمرود كان لديهم من يحبونهم!
قال مطرف بن عبد الله: قـــال لي الإمام مالك:
ما يقول النـــاس فيَّ؟!
فقلتُ: أما الصديق فيثني عليكَ، وأما العدو فيقع فيكَ!
فقال: ما زال الناس كذلك، **ولكن نعـــوذ بالله مـــن اتفـــاق الألسنة كلها!**
لقد استعـــاذ أن يمدحـــه النـــاس كلّهـم فيغترَّ،
أو يذمّه الناس كلهم فيكون فيه شيء مما قالوا!

الـمـــــوتُ
ليس نهاية
الحكـــــاية
إنه بدايتهــا
فقط !

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾

إنّه اللّه!

من الذي جــاءه خــائفاً فمــا أمّنه؟
ومن الذي جـاءه منكسراً فما رمّمــه؟
ومن الذي جاءه مستنجداً فما نصره؟
ومن الذي جاءه حزيناً فما أسعـــده؟
ومن الذي جــاءه حيــرانَ فمــا دلّه؟
تخيّرْ أوقات الإجابة، وأنِخْ مطاياك ببـــابه،
أقْبِلْ عليــه في الثلث الأخيــر من الليـــل،
فسـهام الدعـــاء بعــد القيـــام لا تخيب،
وثِقْ بربك فإن الأيدي الفارغة الممتدة إليه،
يستحيل أن ترجع إلا ملأى!
وقـــبل كلّ هذا، ليكـن طعـامـك كلّـه حـــلالاً،
وفي الحديث: أَطِبْ مطعمكَ تكُنْ مجابَ الدعوة!

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾

أطفئْ بهذه الآية نار حسرتكَ على كـل فرصــة ضــاعتْ، وعلى كـــل وظيفـــة خسرتهـــا،
وعلى كل حبيبٍ أفلتَ يدكَ في منتصفِ الطريقِ،
وعلى كل صـــديقٍ حسبتَ أنَّ له وجهــاً جميلاً،
فلم يكن هذا إلا قناعاً لذئب جارح!
مــا أخذه الله منـــك فلحكمــة،
ومــا تــركه لكَ فلرحمـــة،
فإنْ علمتَ الحكمة، فاشْكُرْ!
وإن جهلتهـــا، فـــاصْبِرْ!
أقدار اللهِ كلها خير وإن أوجعتك!

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

لم يَدُرْ في خَلَدِ آدم عليه السلام وحواء
أن شخصاً يمكنُ أن يقسم باللهِ كاذباً،
ولكنَّ إبليس قد فعلها!
أمّا نصحه، فإنّه سمّى الأشياء بغير مسمّياتها للإغراء،
فما كان اسمها إلا شجرة المعصية،
فسمّاها لهما شجرة الخُلد!
وعلى خُطى إبليس يسير الأبالسة اليوم!
الخمر مشروب روحي،
والعُري موضة،
والفحش حضارة،
والزنا انفتاح!
فلا تخدعنَّك الأسماء مهما تغيَّرتْ!

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

سارعوا، لأن الموتَ لا ينتظر!

غداً أتوب، غداً أضَع برنامجاً للقراءة، وغداً أتبعُ حمية غذائية..

يأتي الغـــد، ولا ننفّـذ شيئاً ممـا نوينـــاه!

أما عن طول الأمل، فكلّنا نعتقد أن الموت بعيد!

بالمناسبة، هذا ما كان يعتقده الذين ماتوا منذ دقيقة!

سارعوا، لأنّ تأخّر لحظات قد يكلفـــك عمراً كـاملاً،

والشيء بالشيء يُذكر،

يقول الصُنابحيّ: خرجنا من اليمن مهاجرين نريد النبيَّ ﷺ فلما وصلنا المدينة قيـل لنـــا:

ماتَ رسول الله ﷺ منذ خمس ليـــال،

تأخُّرُ خمس ليالٍ حرمهم شرفَ الصُحبة،

فسارعوا، فربما تأخُّرُ ساعة قد يحرمكم الجنّة!

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

الموت هو الكأس الذي سيشرب منه الجميع:
المؤمن والفاجر، النبيُّ والطاغية، والجنُّ والملائكة،
وليس غير الله يبقى!
والموت ليس نهاية الحكاية،
على العكس تماماً، إنّه بدايتها فقط!
وكفى بالموت واعظاً!
كان لأبي نواس شاعر الخمرة الشهير جارٌ صالح،
وكان كثيراً ما يدعوه إلى الله وترك الخمرة،
فلما ماتَ هذا الجار، مشى أبو نواس في جنازته،
ولما وقف على قبره قال: **أنتَ اليوم أوعظ منك حياً!**
أي أنّ كلّ الكلام الذي قلتَه لي تنصحني،
لا يساوي في الموعظة رؤيتي لك في قبرك!

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

هذه الدنيا دار زراعة لا دار حصاد،
ودار امتحـــــان لا دار جـــــزاء،

ومن امتحانات الله سبحانه لعباده أنه يُنزل بهم المصائب:

فَقْدُ الأحبة مصيبة،
وفَقْدُ المالِ مصيبة،

والجار السيء، والزوج الفاجر، والمدير الظالم كل هذه مصائب!

فمن صبرَ، فقد نجح في الامتحـــان!
ومن سخط، فقد رسب في الامتحان!

ولن ينجو إنسان من مصيبة، حتى الأنبياء، كانوا أشد الناس بلاءً!

يروي أهل الأخبار والسِّير،
أنَّ ذا القرنين لما وصل إلى بابل مَرِضَ مرضاً شديداً،
فعــرفَ أنـــه المـــوت،
فخطرت لـــه أمــــه،
فأراد أن يربطَ على قلبها،
فـــأرسل لها كبشاً ضخماً،

وأوصاه أنه إذا مات أن تذبحه،
ثم تطبخه، ثم تدعو إليه من لم تصبه مصيبة قط،
أو لم يفقد عزيزاً، فلما ماتَ نفّذتْ وصيته،
ولكن المفاجأة كانت أنه لم يأتِ أحد،
لأنه لا يوجد بيتٌ إلا وفيه فقد أو مصيبة،
ففهمت رسالة ابنها، وقالتْ تدعو له:
رحمكَ الله، بَرَرتني حياً وميتاً!

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾

وهـــنَ عظمـــه،
واشتعلَ رأسه شيباً،
وكانت امرأته عاقراً،
لكنه كان يعرفُ أن الأسباب تحكمُ الناس،
ولا تحكم الله جلّ في عــلاه،

فرفع يديه ودعـــا: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾

فجاءته الاستجابة: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾

من علّقَ قلبه بالأسباب، تركه الله إليها!
ومن علّقَ قلبه بالله، هيأ له الأسبـــاب!

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

تمرضُ القلوب كمـا تمرضُ الأجســام،
وعلاجُ أمراض الأجسام، أيسر من علاج أمراض القلوب!

وإنَّ من أفتك الأمراض التي تصيب القلب هو الكِبر: أن يرى الإنســان أنــه أفضــل من غيـــره، بسبب مالٍ أعطيه، أو شهادة حصل عليها، أو وظيفة شغلها.

وهناك كِبر ليس وراءه مميزات شخصية وهذا أسوأ أنواع الكِبر!

ففي الحديث: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر!

وكان دأبُ الصــالحين أن يعالجـوا فـوراً أي شعور بالاستعلاء يجدونــه.

مرَّ الصحابي الجليل عبد الله بن سلام بالسوق يحملُ حزمـة حطب،

فقيل له: أليس الله قد أغنـــاكَ؟

قال: بلى، ولكن أردتُ أن أقمعَ الكِبر!

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

ما أبغضَ اللهُ سبحانه شيئاً أكثر من الظلم إلا الشـرك،
ومن بُغض الله سبحـانه للظلم والظـالمين،
أنه يستجيب دعاء الكافر المظلوم، على المسلم الظالم.
ليس حُباً بالكافر، ولا بُغضاً بالمسلم،
ولكن حُبًّـا للعدل، وبُغضـاً للظلم!
وقد قـال ابن تيميـة: إن الله ينصر الدولة الكافرة
العـادلة، على الدولة المسلمة الظالمة!
وكتبَ رجل إلى عبد الله بن عمر يقول:
أكتُبْ إليَّ بالعلم كله!
فكتبَ إليه ابن عمر يقـول: إنَّ العلـمَ كثير،
ولكن إن استطعتَ أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء
الناس، خميص البطن من أموالهـم، كـافًا لسـانك
عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم. فافعل، والسَّلام!

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

فرقٌ كبيرٌ بين الذي يفعل المعصية ضعفاً وهو منكسر، وبين من يفعلها وهو مستخف بها مستكبر،

الذي يُذنبُ فتنصحه فيقول لكَ:

ادعُ لي، فقد غلبتني شهوتي، ووسوس لي الشيطان، وزينتْ لي نفسي،

يختلفُ كثيراً عن الذي يُذنبُ فتنصحه فيقول لكَ:

وما المشكلة، إنها حياة واحدة استمتعْ بها يا رجل!

الأول عودته إلى الله سهلة، لأن مشكلته في جوارحه،

والثاني عودته إلى الله صعبة، لأن مشكلته في قلبه!

وكان سُفيان بن عُيينة يقول:

من كانتْ معصيته في الشهوة فارجُ له الخير،

ومن كانت معصيته في الكِبر فاخشَ عليه،

لأنّ آدم عليه السّلام عصى مشتهياً فغُفِرَ له،

وإبليسُ عصى مستكبراً فلُعِنَ!

﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ﴾

البُغض الشديد مهلكة،

والحُبُّ الشديد مهلكة،

وقد ابتُليَ يوسف عليه السّلام بهما:

فأما البغض الشديد، فكان سبباً لإلقائه في الجُبّ،

وأما الحُبُّ الشديد، فكان سبباً لإلقائه في السجن،

نحن أحياناً لا نملك زمام قلوبنا،

ولكننا أمرنا بالعدل سواءٌ أحببنا أم كرهنا،

فلا تجعل سيئات من تُحب حسنات لأنك تُحبه.

ولا تجعل حسنات من تكره سيئات لأنكَ تكرهه.

كُنْ عادلاً، وضَع الأشياء في أماكنها الصحيحة!

قال عبد الله بن محمد الورّاق: جئنا إلى الإمام أحمد،

فقال لنا: من أين أقبلتم؟

فقلنا: من مجلس أبي كريب،

فقال: اكتبوا عنه، فإنه شيخ صالح.

فقلنا: ولكنه يطعنُ فيكَ!

فقال: شيخٌ صالح قد بُلِيَ بي!

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

إنَّ أجمل نعيم الجنّة ليس في حورها،
وإن كــان هــذا شيئــاً جميــلاً!
وليس في أنهــارهــا،
وإن كان هذا شيئاً فاتناً!
ولكنّه في النظر إلى وجه الله تعالى!
فإذا دخلَ أهل الجنة الجنة، يقــول الله لهــم: تريدون شيئاً أزيدكم؟
فيقولون: ألمْ تُدخلنــا الجنة، وتبيّض وجوهنــا، وتُنجِنا من النار؟
فيكشف الحجاب عن وجهه الكريم، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجل!

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾

جاء أبو ليلى وعبد الله بن مغفل إلى النبيّ ﷺ

يوم تبوك ليعطي كل واحد منهما فرساً ليجاهد عليها،

فلما أخبرهما أنه لا يجدُ ما يعطيهما،

عادا أدراجهما وهما يبكيان.

هذا بكاؤهما على فوات الطاعة،

فكيف يا ترى كان بكاؤهما إذا اقترفا معصية؟!

إنّه حال المؤمن الحق،

يعزُّ عليه أن تُغلقَ الأبواب بينه وبين الله!

هذا إن كان في طاعة سعى إليها بكل جوارحه،

ثم لسبب ما حال الله بينه وبينها.

فكيف لو أحسَّ بالابتعاد عن الله بسبب ذنبٍ أصابه؟!

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أكثر خُلق يحبُّه الله سبحـانـه من العبـد،
هو الخُلقُ الذي ارتضاه جل في علاه لنفسه.
ولأنه يُحبُّ العفو والصفح.
كان حبّه للعافين عن الناس، والصافحين عنهم أكبر من غيرهم!
رغّـب النبيُّ ﷺ بالصدقـة يومـاً،
وكان عُلبة بن زيد فقيراً، لا يجد ما يتصدق به،
فقام فقال: يا رسول الله إني تصدّقتُ بعرضي على كلّ من ظلمني!
فلما كان الغد قال النبيُّ ﷺ: أين عُلبة بن زيد؟
فقـام وقال: هـا أنا يا رسـول الله!
فقال له: إنّ الله قد قبلَ منك صدقتكَ!

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾

واحد من أصعب الامتحانات في تاريخ البشرية،
شيخ جليل طاعن في السِّن حُرِمَ الولدَ لسنوات،
فلما رُزِق ولداً وتعلَّق قلبه به،
جاءه الأمر بذبحه!
فما تلكأ، ولا تباطأ،
كان يعرف تماماً أن رؤيا الأنبياء وحي،
فأسرع لينفذ أمر الله، وإن كان بغير ما يهواه قلبه.
لهذا بالضبط كان إبراهيم عليه السَّلام أمة.
لأن الله تعالى كان في قلبه أولاً، حتى قبل نفسه!
ولكن الله سبحانه أرحم من أن يكتبَ على خليله ذبح ابنه، ولكن لما تعلَّق قلب إبراهيم باسماعيل عليهما السَّلام، أمره بذبحه!
ثمة قلوب يغارُ الله تعالى أن يكون لأحدٍ غيره حظ فيها،
فكان المطلوب ذبحُ هوى إبراهيمَ في اسماعيل!

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾

ورد في كتاب بحر الدموع لابن الجوزي عن سعيد بن جبير أنه يُؤتى بالعبد يوم القيامة فيُعطى كتابه،
فلا يرى فيه صلاته ولا صيامه،
ولا يرى أعماله الصالحة،
فيقول: يا رب هذا كتاب غيري!
قد كانتْ لي حسنات وليست في هذا الكتاب،
فيُقال له: إنَّ ربكَ لا يضل ولا ينسى، ذهبَ عملك باغتيابك للناس!

احذرْ أن تتعبّد الله لغيركَ، أن تذهبَ حسناتك غداً لمن كسرتَ خاطره، ولمن أكلتَ ماله، ولمن اعتديتَ على عرضه، ولمن سرقتَ وظيفته بالواسطة!

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

كــان ابن القيم رحمه الله يقــول:

خير أيام العبد على الإطلاق يوم توبته إلى الله!

وفي الأثر:

إذا تاب العبدُ نادى مناد أن فلاناً قد اصطلحَ مع ربه!

إنَّ الإنسان إذا كان له حبيبٌ من الناس فحدث بينهما خصام، فإنه يتفننُ في استرضائه ليعيد المياه إلى م جاريها. والله سبحانه أحقُّ أن يُسترضى!

فإذا جئتَ بعملٍ يخدشُ الحُبَّ الذي في قلبكَ لله، فتفنن في استرضائه كما لو كان محبوبكَ من الدنيا، تارةً بالصدقة، وتارة بالاستغفار والصلاة والقرآن، فإن النبيل من الناس إذا استُرضيَ رضيَ،

فكيف بالله وهو أرحم الراحمين؟!

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾

هذا ما قالته آسيا بنت مزاحم لزوجها فرعون عن
موسى عليه السلام،
فقال لها فرعون: يكونُ لك، وأمّا أنا، فلا حاجة لي به!
ويقول النبيُّ ﷺ معلقاً على هذه الحادثة:
والذي يُحلفُ به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرة عين كما
أقرّتْ امرأته،
لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرَمه ذلك!
القدر موكل بالمنطق، فتفاءلوا بالخير تجدوه،
الذي يستلمُ وظيفةً وفي قرارة نفسه أنها نحس،
فلن تكون عليه إلا كذلك!
والذي يتزوج وفي قرارة نفسه أنها صفقة خاسرة،
فلن تكون له إلا كما قال!
أحسنوا الظنَّ والمنطق،
فربما أُتيَ المرءُ من قبل لسانه!

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ولو أنكَ تتبّعتَ وصف ربنا لأكثر النـــاس في القــرآن،
لوجـــدتَ أنـــه يقـــول فيهـــم:
لا يعلمون، لا يشكرون، لا يعقلون
بالمقابل فإنّ ربنا يقول: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾
فــلا تركن إلى النــاس كثيـــراً،
قدّم الذي عليكَ، وسَلِ الله الذي لكَ!
قال الإمام أحمد لحاتم الأصمّ: كيف السبيل إلى
السلام من الناس؟
فقال له: تعطيهم مالكَ ولا تـأخذ من مالهـــم،
ويؤذونكَ ولا تؤذيهـــم،
وتقضي مصالحهم ولا تكلفهم بقضاء مصالحكَ.
فقال له الإمام أحمد: إنها لصعبـــة يا حـــاتم!
فقال له: **وليتكَ تسلم!**

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾

إنّها النّميمة، مفرّقة الجماعات، وهادمة العلاقات،
وما أكثر النمامين!
إذا تكلّم أحدٌ بحقّ أحدٍ بالخير في غيابه،
لا تكاد تجد من يحملُ هذا الخير إليه ويبلّغه به،
وإذا تكلّم أحدٌ عن أحدٍ بسوءٍ في غيابه،
سعى كثيرون يوصلونها إليه!
وقد دأبَ الصالحون قديماً أن يُغلقوا الأبواب في وجوه النّمامين!
فعن الفضل بن عياش قال: كنتُ عند وهب بن مُنبه،
فأتاه رجل فقال له: إنّي مررتُ بفلانٍ وهو يشتمك،
فقال له وهب: أما وجدَ الشيطان رسولاً غيرك؟!
فلا تكونوا رُسلاً للشيطان!

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

إنَّ امتناع إبليس عن سجدةٍ أمره الله بها،
كان سبباً في طرده من رحمة الله!
ولكن لو تأمّلنا في حال إبليس،
وفي حال تارك الصلاة من المسلمين،
لظهرَ لنا العجب!
إنّ إبليس رفضَ السجود لآدم،
وتارك الصلاة يرفضُ السجود لرب آدم.
فسبحان الله ما أرحمه، وما أحلمه على هذه الأمة!
إنّه ينادي عباده للعودة إليه صباح مساء،
مهما عظم الجُرم، وكبرت الخطيئة، وطال الهجران!

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾

يقول يحيى بن معين:

ما رأيتُ أحداً مثل أحمد بن حنبل،

صحبناه خمسين سنة،

فما افتخر علينا بشيءٍ مما كان فيه من الصلاح

والخير!

وكان رحمه الله يقول: نحن قوم مساكين!

تواضَعْ:

المال الذي يجعلك متكبراً، فقر!

والعلم الذي يجعلك مستعلياً، جهل!

والمنصب الذي يجعلك جباراً، انحطاط!

والقوة التي تجعلك باطشاً، ضعف!

الغنى، والرفعة، والعلم تجدها عند المتواضعين!

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

نحن في هذه الدنيا نمشي وفق قـدر الله سبحـــانه،
المـــرض الذي أصـــابك لم يكن بإمكانك تجنبـــه،
والموت الذي نزل بحبيب لك كان سيقع مهما حاولتَ،
والوظيفة التي فقدتها كنتَ ستفقدها،
ولو مسحتَ كل صباح حذاء مـــديرك!
ويا للنبيّ ﷺ كيف يربّتُ على القلوب:
"اعلمْ أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك،
وما أخطـأك لـــم يكـن ليصيـــبك!"
ويقول الحسن البصري: إنّا إن لم نُؤجر إلا فيما نُحبّ
قلّ أجرنا، **وإن الله كريم يبتلي العبدَ وهو كاره ليعطيه الأجر!**

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

نزلَ الإمام أحمد إلى سوق بغداد،
واشترى حزمة حطب وحملها على كتفه،
فلما رآه الناس أسرعوا إليه:
تركَ أهل الدكاكين دكاكينهم،
وتوقف المارةُ يسلمون عليه،
وكلهم يقول له: نحن نحمِلُ الحطبَ عنكَ!
فاحمرَّ وجهه، ودمعتْ عيناه وقال:
نحن مساكين ولولا ستر الله لافتضحنا!
تعلَّم أحمد بن حنبل التواضع من النبيِّ ﷺ،
فقد علِمَ أنه كان يحلبُ شاته، ويخصف نعله،
ويخيطُ ثوبه، ويسابقُ زوجته عائشة،
ويمسح دمع زوجته صفية،
وعندما تقسَّم أصحابه العمل في ذبح الشاة،
فقال أحدهم أنا أذبحها. والآخر أنا أسلخها،
قال النبيُّ ﷺ: وأنا أجمعُ الحطب!

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

الملائكة لا يكتبون فقط ما تقوله شفاهاً للناس.
وإنما يكتبون ما تقوله في مواقع التواصل أيضاً،
الكلمة الطيبة في صحيفة الحسنـات.
والكلمة الخبيثة في صحيفة السيئات،
وكل ما تكتبه هناك سيبقى بعد موتك.
فإن لم يكن لك في منشوراتك صدقة جارية،
فعلى الأقـل لا تتـرك خلفك سيئة جـارية!

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

تضيقُ الأمور بالإنسان حتى يظن أن لا مخرج منها،
ثم يأتي الفـرجُ من الله سبحـانـه،
من كان يعتقد أن هاجر التي كانت تركض
بين الصفا والمروة بحثًا عن شربة مـاء،
سينفجر بين قدمي ابنها ماء زمـزم؟!
لا ليشربا هما فحسب، وإنما لتشرب الأمم حتى يوم
القيامة،
هكذا يُبدِّل الله من حالٍ إلى حالٍ في طرفة عين،
الشدة بتراء لا دوام لها، هكذا يقول ابن القيـم:
كلنا مرتْ بنا لحظات قاسية حسبناها نهاية المطاف،
كل هذا أصبح اليوم مجرد ذكريات.
فلا تيأس، وثِقْ بربك. **فـإن أعظـم العبـادة
انتظـار الفرج!**

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

تـــأمّلها جيـــدا: لأبيـــه!

اعرِفْ أين تضعُ ســرك

ليس كـــل إنسان يُؤتمـــن،

وليس كل موضوعٍ يصحُّ فيه البوح

لا تختلط بأكملكَ بالنّـاس،

واتركْ شيئاً منك لنفسكَ!

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾

كل الأسباب كانت تقفُ في وجه زكريا عليه السَّلام،
هو يريدُ ابناً. وكل الطُرق مغلقة،
وهن عظمه، واشتعلَ رأسه شيباً، وامرأته عاقرا!
فمن أين يأتي الولدُ وقد اجتمعت كل هذه السدود؟!
ولكن زكريا عليه السلام كان يعلمُ أنَّ الله قادر،
فلما أفرغَ قلبه من التعلق بالأسباب،
ولما رآها لا شيء أمام قدرة الله سبحانه، وعلَّقَ قلبه
بربه وحده، جاءه النداء الجميل:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾

من عامل الله باليقين، سخَّر الله له المعجزات!

﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

الآية نزلتْ في الإفســـاح بالمجـــالس،
ولكنها أعمُّ من هذا معنى، وأجزل عطاءً!
كلّ من وسَّع على من اشتدتْ به، وسَّع الله عليه!
وكلّ من جبر خاطراً، جبرَ الله خاطره!
وكلّ من أسعدَ قلباً، أسعد الله قلبــــه!
وكلّ من خفّفَ وجعاً، خفّف الله وجعـه!
وكلّ من مسحَ دمعةً، مسحَ الله دمعتــه!
لا أحد أكرم، ولا أوفى من الله سبحانه،
وصنــائع المعروف تقي مصارع الســوء!

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾

هكذا وحدكَ، فرداً،

بلا المال الذي جمعته،

ولا المنصب المرموق الذي شغلته،

ولا العائلة الكبيرة التي كنت تحتمي بها،

أنتَ وأعمالك والله!

عندما نام السلطان سليمان القانوني على فراش الموت،

قال لمن حوله: إذا متُّ فأخرجوا يديَّ من التابوت،

ليعلم الناس أنّه حتى السلطان قد خرجَ منها فارغ اليدين!

لا بأس أن يعمل المرءُ لدنياه،

ولكن دون أن ينسى آخرته!

ولا بأس أن يجعل بيته جميلاً،

ولكن دون أن ينسى قبره!

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

كان أحد الصالحين أقرع الرأس، أبرص البدن.
أعمى العينين، مشلـــول القــدميـن واليـدين،
وكان يقول: الحمد للهِ الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً
من خلقه،
فمرَّ به رجل وقال له: أعمى، وأبرص، وأقرع، ومشلول،
فممَّ عافاك؟!
فقال له: ويحكَ يا رجل، لقد جعلَ ليَ لساناً ذاكراً،
وقلبـــاً شـــاكراً، وجسـداً على البـــلاء صابراً!
للأسف، يعتقدُ الناس أن المال هو فقط النعمة التي
تستحق الشكر،
وينسون الأعين التي ترى، وفي الدنيـــا عميان،
والأيدي التي تأخذ وتعطي، وفي الدنيا مشلولون،
والأرجـــل التي تمشي، وفي الدنيـــا مقعـدون،
فيا ربِّ لكَ الحمد!

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

أي تتبدّل أحوالكم من حالٍ إلى حالٍ،
وما بعد الضيق إلا الفــرج،
وما بعد المرض إلا الصحة،
وما بعد الحزن إلا الفــرح،
وما بعد الافتراق إلا اللقيا!
هذه الدنيا لا تلبث على حالٍ أبداً،
يتقلبُ فيها الناس بين الفقر والغنى، والصحة والمرض،
والضيق والفرج، والوداع واللقــاء،
والسعيد من كان مع اللهِ في كل حالٍ!

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾

الذي تربّى في بيتِ نبيّ غـرِقَ بالطوفــان،
والذي تربّى في بيتِ فرعون شقّ البحر بعصاه،
ليــس المهــم أين تعيــش بل كيــف؟
ليس المهــم البــدايات بــل النهايــات!

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾

ليس المهم أين تكون، وإنما كيف تكون!
المعدن الأصيل لا تغيره الأيام،
فلا يزيده الغنى والمنصب والشهادات إلا تواضعاً!
والخبيث خبيث، سواء أكان ماسح أحذية أو وزيراً!
في السجن قالوا ليوسف عليه السلام: "إنا نراك من المحسنين"
وهو على كرسي الملك قالوا له: "إنا نراك من المحسنين"
النبيل يبقى نبيلاً حيثما كان!

﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

هذه سارة، وقد بشرتها الملائكة بإسحــاق!
ضربتْ بيديها على وجهها من الذهـــــول،
عجوز، وعقيم!
فالتي كانت تلد في شبابها، لن تلد في كبرها
فكيف بهـــا هي التي لم تلــد في شبابهـــا؟!
لعلكَ تنظرُ الآن في وضعك وحـــالك،
فتقول: يا رب كيف تتحققُ الأمنيـــات؟
ولكن ثِقْ تماماً أنِ الله سبحانه إذا أراد بكَ الخير، حمله لكَ ولــو على ظهــر عدوكَ!

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

إنَّ الله لم يُعطِ العاصي مالاً عن ضعفٍ منه سبحانه،
ولم يحرم الطائع المال عن فقرٍ منه سبحانه،
ولكنها دار امتحان!
والله سبحانه لا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنعُ إلا لحكمة،
فما كان لكَ سيصلكَ،
ولو وقفَ العالم كله يريدُ أن يمنعه عنك!
وما لم يكن لك لن تناله،
ولو ساندكَ العالمُ كله للحصول عليه!
رُفعت الأقلام وجفّتْ الصحف!

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾

ليس قــوة يـد وبـــدن،
وإنما قوة قلب وعقيدة،
وأنتَ أيضاً: خُذ الكتاب بقوة!
كُن راسخاً في إيمانك ثابتاً في عقيدتـــك.
لو مالَ الناس كلهـم، فاثبُتْ!
ولو انتكسَ الناس كلهـم، فلا تتركْ صلاحكَ!
إنّ هـــذا الدين منتصرٌ بـــك، أو بـدونـــكَ!
وحدكَ الذي ستخسر إن مضتْ القافلة
ولم تكن فيها!

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

الدنيا بالمال أيسر،

وبالأولاد أحلى،

ولكن تأمّل دقة التعبير في الآية: زينة،

وليس قيمة!

الإنسان بما يعرفُ لا بما يملكُ؛

وبما في قلبه لا بما في جيبه،

بحنانه لا بسلطانه،

وبرقته لا بقسوته،

لا تكنْ كالذين حسدوا قارون على ماله،

فلما خسف به وبداره الأرض عرفوا الحقيقة.

اعرفها أنتَ مبكراً!

﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ ﴾

ألطـــاف الله تجـــري ونحن لا نـدري،
وفي كل شر يقع بنا، خير سنكتشفه لاحقا!
السفينة في سـورة الكهـف لو لـم تُثقب،
لأخذها الملك غصباً، وخسر الفقراء مصدر رزقهم!
والغلام لو لم يُقتـل، لشقيَ وأشقى والديـه!
حتى الجـدار، لو لم يُقَم لضاع حق اليتيمين!
ثقوا بالله. **فربُّ الخير لا يأتي إلا بخير!**

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾

يُدبِّر الأمر، فلِمَ تقلق؟!
استنِدْ بيقينك على الله سبحــــانــه!
المرض الذي نزلَ بكَ، شفاؤه عنــده.
والدَّين الذي أرهقكَ، سداده عنـــده.
والهمُّ الذي أثقــــلكَ، زوالـه عنـده.
والضيق الذي كدَّركَ، إنفراجه عنده.
لُذْ ببابه دوما!
إنّ الكريم من الناس، يقضي حوائج الناس!
فكيف بالله؟!

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾

الأوَّاب في اللُّغة صيغـة مبـالغـة،

وفي المعجم: كثير التوبة إلى الله،

وسياق الآية يقول:

لو لم يكن كثير الذنوب، ما كان كثير التوبة!

إياكَ أن تستكبر ذنبكَ أمـام رحمـة الله،

وإياك بالمقابل أن تستصغره أمام عقـابه،

كُنْ بين الرجاء والخوف:

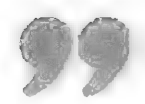
رجاء من رحمته سبحانه، وخوف من عقابه!

وإياكَ أن يجعلك الشيطان تخجل من ذنبك فلا ترجع إلى ربك،

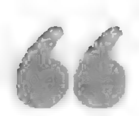
فإنه ما سمّى نفسه الغفور، إلا لأننا نذنب ويتوب علينا!

فـإذا أذنبتَ في اليـوم ألفَ مرة

تُـب إلى الله ألــف مــرة!



من علَّقَ قلبـــه
بالأسباب تركه
اللّه إليها..
ومن علَّقَ قلبه
باللّه هيَّأ لـــه
الأسباب.



﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾

كان زكريا عليه السلام عند الناس نجاراً،
ولكنه كان عند الله نبياً مرسلاً،
قيمتك ليست في وظيفتك ولا شهادتك،
قيمتك بما أنتَ عند الله!
وفي الحديث: ما من نبيٍّ إلا ورعى الغنم.
فقالوا: وأنتَ يا رسول الله؟
قال: وأنا كنت أرعاها على قراريط/ أُجرة لقريش.
فلا تخجل بوظيفتك ولا منصبك.
ما دمتَ تأكل لقمتكَ بالحلال، فافخر بنفسك!

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

الآية نزلت في الصحابة في غزوة تبوك.
الغزوة الأصعب بين غزوات النبي ﷺ،
فهي الغزوة الأبعد مسافةً.
والطقس يومها صيف، والحر شديد، والصحراء لظى،
وسُمّي جيشها بجيش العسرة، لأنه لم يكن هناك مال
لتجهيز الجيش، ومع ذلك سمى الله تعالى كل هذه
المشقة: ساعة العسرة!
الوقت يمضي سريعاً،
والأيام تتبدل كأنها الريح،
ولا يبقى من الطاعة إلا أجرها،
ولا يبقى من المعصية إلا وزرها،
وقد كانوا يتواصون في الشدائد:
إنما هي أيام تمضي، والموعد الجنّة!

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

يقول سعيد بن جُبير:

الحياة الطيبة هي أن لا يحوجكَ الله إلى الناس!

وهذا قـول جميل، ولكن في الآية مـزيـداً:

فالحياة الطيبة ليست أن لا تمرض ولا تفتقـر،

وليست في أن تكون صاحب جاه ومنصـب،

وإنما أن ترضى بقضـاء الله مهمـا كـان،

فإن السخط على قَدَرِ الله ضنكٌ وتعب ومشقة!

ومتى وهبـكَ الله الرضى على كلِّ أقـداره،

فجعلكَ حامداً في رخائك، صابراً في شدتك،

فقد أحياكَ حياةً طيبة!

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

في أحسن تقويم لا تعني وسيماً وأشقر!
وإنما في جسد هو معجزة في وظـائفه:
الجَمال كالمال أرزاق، وزّعها الله لحكمة بين خلقه!
كان لقمان الحكيم عبداً من النُوبة،
وكان بلال بن رباحٍ أسود البشــرة،
فما ضرَّهما ذلك شيئًا!
وما نفعُ الوسامة والجمال في قلوب فاجرة ستأكلها النار!
فلا تسخــر من شكــل أحــد وهيئتـــه،
أنـــتَ لــــم تخــلقْ نفســـك،
فإن لم تحترم الخلقَ، فتأدّب مع الخالق!
لا تجعل أحــداً يكره شكلــه وهيئتـــه،
لأنك تريدُ أن تضحك وتمـــزح وتتندر!
اللسان أحياناً أمضى من ضربة السيف!

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾

هكذا خُلقنا لا نُطيق الانتظار!

حتى نحن الكبار، نشبه أولئك الأطفال الذين
إذا وعدناهم بشيءٍ سألونا كلّ دقيقة عنه!
أدِّبوا هذه العجلة بالصبر.

ثمة أمور كثيرة لا ينالها العجول بسبب عجلته،

يروي الذَّهبي في سير أعلام النبلاء عن جعفر بن أبي
عثمان قال:

كنا عند يحيى بن معين، فجاءه رجل مستعجل،
فقال له: يا أبا زكريا حدثني بشيء أذكرك به،
فقال له: اذكرني أنكَ سألتني أن أُحدثكَ فلم أفعل!
يريدُ أن يقول له أن العلم لا يُعطى لعجول!

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

إنه شيخ المرسلين نوح عليه السلام،
ألفَ سنة إلا خمسين عامًا يدعو قومه.
ولم يؤمنْ معه إلا قليل،
نحن مسؤولون عن السعي، لا عن النتيجة!
عن الطريق، التي مشينا بها لا عن الوصول!
وفي الحديث: يأتي النبيُّ وليس معه أحد!
هذا لأنّ كلَّ نبيٍّ يأتي مع قومه يوم القيامة.
وهناك أنبياء لم يؤمن بهم أحد!
يقول الإمام الأوزاعي:
ماتَ عطاء بن أبي رباح يوم ماتَ وهو أعلم أهل الأرض،
وما كان يشهدُ مجلسه إلا تسعة!

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

مهما كنتَ على صواب، والآخر على خطـــأ،

ومهما كنتَ على الهدى، والآخر على ضلال،

الأخلاق تأتي أولاً!

دخلَ لصٌ بيتَ مالك بن دينار، فلم يجد شيئاً يأخذه!

فناداه مالك: لـــم تجد شيئاً من الدنيـا تأخـــذه،

فهل لكَ بشيءٍ من الآخـــرة؟!

فقـــال اللـــص: نعـــم!

فقال له: توضأ، وصلِّ ركعتين،

ففعلَ، ثم جلسَ قليلاً، وقام وذهبَ إلى المسجد،

فلما سُئل مالك عن الرجل قال:

جاء ليسرقنا، فسرقنـــاه!

﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾

أحيانا عليك أن تلتزم الصمت،
لأن بعض المشاكل يفاقمها الكلام!

تظاهر بأنك لا تعرف،
ومثّل بأنك لم ترَ،
وتصرّف بأنك لم تسمع،
وتعاط كأنك لم تفهم:
دخل على الخليفة المهدي رجل في يده نعل،
وقال له: يا أمير المؤمنين هذه نعل النبيّ ﷺ،
فأخذها المهديّ، وقبّلها، وأمر للرجل بعشرة آلاف
درهم، فلما خرج من عنده قال المهدي لجلسائه:
أعلم أن النبيّ ﷺ لم يرَ هذه النعل ولم يلبسها،
ولكن لو كذّبناه لقال للناس أتيتُ الخليفة بنعل النبيّ ﷺ، فردّها!

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾

الشماتة بمصائب الآخرين من صفات المنافقين،

فأحبّوا الخيرَ للناس كأنّه لكم.

واكرهوا الأذى لهم كأنّه لكم!

قال سري السّقطي وكان عالم أهل زمانه:

منذُ ثلاثين سنة وأنا أستغفرُ من قولي الحمدُ لله،

فقيل له: وكيفَ ذلك؟

فقال: وقعَ ببغداد حريق، فخرجتُ اتفقدُ دكاني!

فلقيني رجل فقال: نجا دكانك!

فقلتُ: الحمد لله!

فأنا نادمٌ من ذلكَ الوقت حيث أردتُ الخير لنفسي من دون الناس!

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

الدنيا متاعٌ زائل هذه حقيقتها لمن وعى!

ليستْ صديقةً لأحد وتتخلى نهاية المطاف عن الجميع

والعاقل من تركَ قبل أن يُتركَ!

عندما جاء عمر بن الخطاب إلى الشام قال لأبي

عبيدة:

اذهبْ بنـــا إلى منزلك،

فقال له: وما تصنعُ عندي؟ ما تريدُ إلا أن تبكي عليَّ!

فلما دخلَ عليه قال له: أين متاعك؟ إني لا أرى عندكَ

شيئاً.

فقال أبو عبيدة: ليس عندي إلا ما ترى،

فقال لـه: أعنـدكَ طعام؟

فقـام أبو عبيدة إلى وعاء، وأخرج منه كِسـرات خبز.

فبكى عمر وقال له: كلنا غيّرتنا الدنيـا إلا أنتَ يا أبـا

عبيدة، هذا وأبو عبيدة يومها أميرُ المسلمين على الشام!

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾

احذر من دعوة أولئك الذين ليس لهم إلا الله :

العامل المسكين الذي أكلتَ أجره،

والزوجة الضعيفة التي أهنتها،

والأخ الذي غصبته ميراثه،

والجار الذي اعتديتَ على أرضه،

فلربما نمتَ أنتَ ليلتك،

وقام هو وتوضأ، فدعا بدعاء نوح عليه السلام

هذا، فتلقى الله سبحانه دعوة المظلوم، وأصدر

أمره لملائكته أن ينصروا عبده،

سأل جعفر البرمكي أباه وهما في السجن:

يا أبت بعد الأمر والنهي والأموال صرنا إلى هذا،

فقال له أبوه: يا بُني، دعوة مظلوم غفلنا عنها ولم يغفل

الله عنها!

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

ليس عن عبث كانتْ الكلمة الطيبة صدقة!

ولكن لأنّها تفتحُ الطُّرق، وترمِّم الأرواح، وتجبر الخواطر!

"من ينشط منكم لجمــع الصحيح"

قالها إسحاق بن راهويه في مجلسه،

فوقعتْ في قلب البخاري فجمعَ لنا الصحيح!

"إنَّ خطَّك يُشبه خطَّ المحــدثيــن"

قالهــا البِرْزالي لتلميــذه الذهبي،

فحببَ الله إليه بها علم الحديث!

"أين أنتَ من الفقه يا شـــافعي؟!"

قالها له كاتب مصعب الزبيري بعد أن كان الشافعي مولعاً بالشعر، فصار بها الشافعي الذي نعرفه ويقول عنه الإمام أحمد:

كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس!

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾

﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾

لا تستهِنْ بالكلمات أبداً،
كلمة واحدة قد تقودك إلى الجنة،
وأخرى قد تقودك إلى النار!
قال النبيُّ ﷺ لمعاذ وهو يشير إلى لسانه:
"أمسِكْ عليكَ هذا!"
فقال له معاذ: أوَمُؤاخذون نحن بما نقول يا رسول الله؟!
فقال له: ثكلتكَ أمكَ يا معاذ،
وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النار
إلا حصائد ألسنتهم!

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾

لا تتحدثْ عن كلِّ ما أعطاكَ الله إيَّاه أمام الجميع،
بعض النّفوس مريضة،
وبعض الأعين مسمومة،
حصّنْ عطايا الله لك بالحمد والكتمان،
أو على الأقل لا تبُح بها للجميع،
فالحاسد، لا يرضيه شيءٌ إلا زوال النعمة!
وقديماً حسدَ الأخوة أخاهم على حلم رآه في منامه.
أتريدُ أنتَ أن تسلمَ من الناس
على وظيفة، وزوجة، ومال، ومنصب؟!

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾

كلّ مكـانٍ عبـــدتَ الله فيه: سيشهد لكَ!

كلّ مكانٍ عصيتَ الله فيه، سيشهدُ عليكَ!

فأكثِرْ شهودكَ!

اجعلْ لكَ في كلْ مكان تأتيه سجدة،

وفي كـلْ مدينة تزورهـــا صدقــة،

وفي كلْ قرية تقدمُ عليها خلوة إلى المسجد!

هذه الأرضُ ليســت ترابا وحصىً فحــسب،

هي شاهد رئيسٍ في أعدل محكمة في الكون،

محكمة الله جل في علاه!

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾

تأمّلها جيداً: برحمـــة منـــا!
فإذا جاءكَ الفَرجُ بعد الضيق، تذكَّرْ أنه برحمة الله!
وإذا جاءك الشفاء بعد المرض،
فليس بالدواء والطبيب، وإنمـــا برحمـــة الله!
وإذا جاءتكَ الوظيفة بعد بطالة،
فليست بشهادتكَ وقدراتكَ، وإنما برحمـة الله!
وإذا جاءك الولدُ بعد انقطـــاع ويـأس،
فليس بالعلاج وقوتك، وإنما برحمة الله!
كل هذه أسباب لا تضرُّ ولا تنفع، حتى يأذن الله!
فكم من مريض تداوى ولم يشفَ،
وكم من حامل شهادة لم يتوظف،
وكم مـن متـزوج لـم يُنجِـبْ،
كلّ خير أنتَ فيهِ برحمة الله، فاعترِفْ بالفضل لصاحبِ الفضل!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ
وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾

كُنْ مع الله، يكُــنْ معــكَ!
لا تسأل متى، وكيف، وأين؟
إنَّ الذي ألانَ الحديد لداود عليه السلام،
لن يصعبَ عليه أن يلين لكَ قلوب الناس،
والذي جعل الجبال والطيور تردد تسبيحه وتلاوته،
لن يصعب عليه أن يجعلك مقبولاً عند النــاس،
أنتَ تتعبّدُ بالطّاعة وهو واعدٌ بالتوفيق!
فقدِّم لله ما يُحب، يُعطِكَ ما تُحبّ!

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

ثمة أمور يجب تنضج قبل أن تحصل عليها،
لأنك لو أخذتها باكراً، لضيّعتها باكراً.
إنّ الذي نصر المسلمين في بدر،
كان قادراً على أن ينصرهم في مكة وهم مستضعفون!
ولكنه أخّر النصر ليربّيهم أولاً،
لينضجوا، ويعرفوا أنّ الرّسالة التي يحملونها.
أكبر بكثير من قريش.
إنّها رسالة التوحيد التي خُلق الكون كله لأجلها!
يا عزيزي: لو كسرنا البيضة قبل اكتمال نموّ الفرخ فيها، لمات!
ولو حصدنا القمح باكراً، لما صار خبزاً!
والطعام الذي لا يأخذ حظّه من النّار، يخرجُ نيئاً لا يُؤكل!
لكلّ شيءٍ أوان، فلا تستعجل!

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾

سُئل حكيم: هـل هنـاك أقبَحُ من البخـل؟
فقال: نعم، المحسن إذا تحدَّث عن إحسانه!
ضَعْ الله نُصبَ عينيـك في كلّ خيرٍ تفعله،
لا تنتظِرْ جـزاءً من أحـد،
ولا تبحث عن التّصفيق والمديـح،
كلّ عملٍ أردتَ به النّاس فهو للنّاس،
وكلّ عمـلٍ أردتَ بـه الله فهـو لله،
مخيفة جِداً مقـولة ابن القيم:
إذا لم تُخلص، فلا تتعبْ!

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾

فكيف بهذا الخير الذي في قلبك؟

وكيف بهذا الحُبّ الذي تحمله للناس؟

وكيف بفرحك بنجاح الجميع كأنه نجاحك؟

وكيف بألمك لألم الناس كأنّه ألمك؟

يا صاحبي، إنَّ الله لا ينظرُ إلينا من فوق،

وإنّما ينظرُ إلينا من الداخل،

فأصلحْ موضعَ نظرِ المَلك!

"ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلُحت صلُح الجسدُ كلّه،

وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلّه،

ألا وهي القلب!"

﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

هذه أُمنية أهــل القبور:

"يا ليتني قدمتُ لحياتي"

وليس يا ليتني قدمتُ في حيــاتي!

لأنَّ حياتنا الحقيقية لم تبدأ بعد،

حياتنا تبدأ حين نوضَع في قبورنا:

فإمّا روضة من رياض الجنّة وإمّا حفرة من حفر النار!

فإذا كان العمل الصّالح أُمنية أهل القبور،

فـــأنتَ في الأمنيـــــة الآن، فـــاعمــل!

وقف الحسن البصري يوماً على قبر يُدفن فيه ميت،

فقال لمن حوله: ما تراه يتمنى الآن؟

فقالوا: أن يرجــعَ، فيعــمل صالحــاً.

فقال لهم: أنتم الآن في الأُمنية، فاعملوا!!

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾

لا تعشْ قلقـــاً على المستقبـــل،
عشْ ساعياً في رضى الله ولا تقلقْ،
فالمستقبل بيده وحده!
رزقكَ لن يأخذه غيركَ،
ولكن عبادتكَ لن يقومَ بها غيـــركَ،
إنَّ الله سبحانه قد تكفَّلَ لكَ بالرزق،
وطلبَ منكَ العمل!
فلا تنشغل بما تكفَّلَ لكَ به،
وتنسَ الذي طالبـــكَ به!

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾

يبتليكَ بالفقـد لتعـرفَ
أن ليس غيـره يبقى لكَ،
ويبتليكَ بالخذلان لتعرف
أنـه أمـانكَ الوحيـد،
ويبتليكَ بالتعثّر لتعـرف
أنـه لا يُقيمـك غيـره!
المصـائب ليستْ دوماً للانتقـــام،
كثيرٌ منها للتّأديب، وتصحيح الطّريق!

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

الله لا يضعُ ثماراً على غصنٍ لا يستطيع حملها،

كلُّ مسؤوليــة ألقــاها على عاتقك، أنتَ لهــا!

كلُّ معـركـــة ألقــاكَ في غمـارها، أنتَ لهــا!

كلّ ثغرٍ كلّفكَ حراستــه، فهذا ثغرك، فـالزَمْهُ!

كلّ همٍ وغـمٍ وحـزنٍ أصـــابك،

أنتَ بحجمهُ، وقـادرٌ على حمله!

المصاعب والمصائب تُقويك،

فلا تترك موقعكَ!

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

ذكرَ الله في الرخـــاء،
فذكـره في الشـــدة!
ولا أحد أوفى من الله!
ادَّخِرْ لكَ عند الله خبايا صالحـة،
حتى إذا وقعـــتَ في الشِّـــدة،
ذكرَ الله لك عبادتكَ في الرخاء، فأنجاكَ!

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾

اصْبِرْ يا صاحبي،
الْزم مصحفكَ، وحافظْ على صلاتك،
احتسِبْ وجعَك.
فَما هو إلا قدر الله:
وما الدّنيا إلا امتحان سينتهي،
ومحطّة عبور سنجتازها نهاية المطاف،
وكُنْ على يقين:
أننا سنجلسُ يوماً في ظلّ شجرة في الجنة،
نضحك على كلّ هراء الدّنيا!!

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

هذا لأنّ صلاة الفجر شاقّة،

والصّيام مُتعب،

والحجّ مُضن،

وكلمة الحقّ خطرة،

والشّهوة مستعرة،

والمال عزيز،

والعفة تحتاجُ إلى مجاهدة،

والأمانة أصعبُ من الخيانة،

وغضّ البصر بخلاف الهوى،

والنفسُ أمّارة بالسوء،

وطريق الجنة شائكة،

بينما طريق النار مُعبدة!

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾

حياةٌ حافلة:

علمٌ، وظيفة، وزوجة، وأولاد، وجمعُ مال،

ثمَّ مـــاذا؟

ثمَّ يهيلون علينــــا التّراب، ويمضــون..

وتبدأ الرحلة:

إمّـــا إلى الجنــــة، وإمّـــا إلى النـــار!

الدّنيا ليستْ إلا دابةً للعبور نحو الآخرة،

فاخترْ دابتكَ!

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

تُؤذيه الكلمـــة الجـارحــة،
ويضيقُ صدره بالقول السّيّء،
وهو نبيٌّ!
فما بالك بمن هم دونه،
فسلاماً، ثم سلاماً، ثم سلاماً،
على الذين يختارون كلماتهـم،
كمـا يختـــارون ملابسهـم،
لأنهم يعرفون أنّ الكلام أناقة أيضاً!

أما السبب: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾

وأما النتيجة: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾

إذا ضاقتْ بكَ الدنيا، فتصدَّقْ من مالكَ وقلبكَ،
أطعمْ جائعاً، ودُلَّ حيراناً، وأقِمْ متعثراً، واقضِ ديناً.
الصَّدقات ليست أموالاً فقط،
جبرُ الخواطرِ صدقة،
وإزالةُ دمعة صدقة،
والمسحُ على قلْبٍ مكسور صدقة،
ثم إنّه لا شيء أجلبُ للهموم من المعاصي،
ولا شيء أريَحُ للقلب من الطاعات،
فإذا ضاقَ صدرك، وانشغلَ قلبك،
فراجِعْ عباداتك!

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

صحيح أنّ العتاب مجلاةٌ للقلوب. وتطهيرٌ للجروح ،
وتنظيفُ الجرح قبل خياطته أسرعُ تماثلاً للشفاء،
ولكن، ليستْ كلّ الظروف مؤاتية للعتاب،
أحياناً عليكَ أن تتظاهر أنّكَ لم تفهم رغم أنّك فهمت
كل شيء!
وأن تتظاهر بأنّك لم ترَ، رغم أنّكَ رأيتَ كل شيء!
تغافَلْ أحياناً، ولو بدا الأمر لكَ خسارة لحظيّة!
النبلاء يعرفون: **أنّ كسب النّاس أولى من كسب
المواقف،**
ولم يُسرّها يوسف عليه السلام في نفسه إلاّ لأنّ
التغاضي من شيم الكرام!
كان الإمام أحمد يقول: تسعة أعشار العافية في
التغافل، ويقول الإمام الشافعي: الكيّس العاقل هو
الفطن المُتغابي،
ويقول أكثم بن صيفي: من تشدّدَ فرّقَ، ومن تراخى
تألّفَ، والسرور في التغافل،
ويقول ابن القيم: من المروءة التغافل عن عثرات
الناس!

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾

سيقولون فيكَ ما ليسَ فيكَ، فلا تلتفتْ!

وتعزَّ بمن سبقوكَ، وهم خير منكَ!

قالوا عن النبيِّ ﷺ ساحرٌ، ومجنون، وكذَّاب!

اتهموا يوسف عليه السلام بالسرقة!

واتهموا مريم البتول بالزنا!

ضَعْ هذه الحقيقة نصب عينيك:

لا نجاة من ألسُنِ الناس مهما بلغتَ من الصَّلاح!

وفي حلية الأولياء:

قال موسى عليه السلام لربه: يا ربُّ أسألكَ أن لا يذكرني أحدٌ إلا بخير.

فقال له الله: يا موسى ذلكَ شيءٌ لم أجعله لنفسي أفأجعله لكَ؟

قال الناس أنَّ لله تعالى زوجةً وولداً،

أفتريدُ أن تسلَمَ منهم أنت؟!

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾

إذا نزلتْ بكَ الهموم والهزائم، فراجِعْ نفسكَ!
فقد يبتليكَ اللهُ تعالى،
ليصلح فيكَ شيئاً لا يصلحه إلا الابتلاء!
يروي أهل الأخبار والسِّير،
أن السَّماء أمسكتْ عن المطر في زمن سليمان عليه السلام، فخرج بالناس لصــلاة الاستسقاء،
فرأى نملةً رافعة يديْها إلى السّماء تقول:
اللّهم إنّكَ تعلمُ أنّ البلاء لا ينزل إلا بذنب،
ولا يُرفــع إلا بتوبــة.
ونحن خلقٌ من خلقك،
وعبــادٌ من عبيــدك،
فلا تُهلكنا بذنوب بني آدم!
فقال سليمان عليه السَّلام للنّاس: ارجعوا فقد استجيب لكم بدعاء هذه النملة!

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾

فإن قالوا فيكَ ما ليسَ فيكَ،
وإن طعنــوكَ في نيَّتكَ،
وإن رموكَ بسوءِ ظنهم،
وإن غمزوا فيك ولمزوا،
فلن يضركَ كل هذا ما دام اللهُ يعلمُ ما في قلبكَ!
وإن كالــوا لكَ المديــح أطنــاناً من الكـــلام،
وإن مجّــدوكَ وصنّفــوكَ مــن الصــالحين،
وإن ألبسوك ثياب المتقين،
فلن ينفعكَ كلّ هذا مــا دام اللهُ يعلمُ مـــا في قلبكَ!
وتذكّر: إنّ الله لاينظرُ إلى وجوهكم
وإنّمـــا ينظـــرُ إلى قلـوبكـــم،
فأصلحْ موضعَ نظرِ الخالق ثم امضِ مطمئناً!

﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾

الشكوى إلى النّاس مجلبة للشفقة،

والشكوى إلى الله مجلبـة للرحمة،

لا يشكو الضّعيف لضعيف مثله، وكل النّاس ضعفاء!

ولا يشكو الفقير لفقير مثله، وكلّ النّـاس فقـــراء!

الضعيف يلوذُ بالقوي، ولا أقوى من الله!

والفقـير يلوذُ بالغني، ولا أغنى من الله!

عِشْ ضعفك كاملاً أمام الله:

ابْكِ، واشكُ، وتذلّل، واطلُبْ،

أمّا مع الناس فارفعْ رأسكَ، وعُضّ على جرحك،

نظرات الشفقة في عيون النّـــاس، كسرٌ آخـــر،

والاتّكاء على أكتاف النّاس، عرجٌ آخر!

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

إنكَ لا تعلمُ بأيّهما تفرح أكثر: بالسبب أم بالنتيجة؟

السبب: اذكروني

النتيجة: أذكركم

إن اللّه تعالى لا يُعصى غلبةً،

ولا يُطاع إلا تكرّماً!

وهذا أجمل ما في الطاعة: أن تعرف أنّه تكرّم عليكَ!

لقد نظرَ إلى قلبك. فاستحسنه فألهمكَ ذكره!

ويا لها من ترقية، ويا له من نيشان!

ثم استمتِـعْ بالنتيجـة: أذكـركـم

تأمل المشهد بقلبك، أنت تذكره بلسانك وتعدّ تسابيحك على أصابعك.

وملك الملوك وجبّار السماوات والأرض، يذكرك!

لو قيل لكَ أنّ رئيساً أو ملكاً ذكركَ لطرتَ فرحاً،

وربّما لن تنام تلكَ الليلة!

فما بالك والذاكر لكَ مَن بيده ملكوت كلّ شيء؟!

﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

قالوا: أفضلُ العبادة انتظارُ الفرج:

أن يكونَ كل مــا حولك يُوحي أن ليس هنــاك حـلٌ،

ولكنّك مــؤمن أنّ الأمــر بيد الله!

وأنّ كلّ ما حولك مجرّد أسباب تجري على النّاس،

لا على الله!

لا تيأسوا، لم يقلهــا يعقوب عليه السلام في رخــاء،

قالها حين فقد بنيامين، بعد فقده ليوسف عليه السلام،

فمــا هي إلا أيّــام حتى كــان يشَمُّ ريح يــوســف،

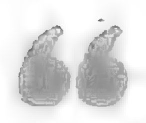
وما هي إلا أيام بعدها، حتى كان يضمّه إلى صدره،

ثِقْ بالله دوماً!

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

لن ينسى الله لكَ خواطرَ جبَرتها،
ولا دموعاً مسحتَها.
ولا حــزنــاً أزلتَــه،
لن ينسى لكَ دموعكَ وأنتَ تدعود دعاء الموقن بالإجابة،
لن ينسى لكَ كتمان الإساءة وأنتَ القـــادر على ردِّها،
ولا انسحابك من معركة الكلّ فيها خاسر،
لن ينسى لكَ صبركَ في لحظات البــلاء،
ولا شكــركَ في لحظـــات الرخـــاء،
سترى ماذا يفعل الله بهـذا كلّـــه!

فإن جَهِلَ النــاسُ
فضلكَ فلا تبتئس
يكفـــي أنَّ اللّه
يعلـــم من أنتَ



﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

أدامَ اللهُ علينا النّعم حتى ظننّا أنّها حقنا، فزهدنا في شكرها!

نشتـــري مـــا نـريدُ، وننسى من أعطـــانا المــــال!

نروح ونجيء بكل قوة، وننسى من أعطانا الصحـــة!

نمرُّ بجانب المستشفيات، وننسى من أعطانا العافية!

نمرُّ بجانب السجون، وننسى من أعطانـا الحريـــة!

نشاهد الموت والدمار في التلفاز، وننسى من أعطانا الأمن!

أخطـــر مـــرض يُصـــاب بــه الإنســـان،

هو أن يألَفَ النِّعمة حتى لا يعـــود يراها نعمة،

البيت الذي يأويكَ نعمة، فانظـــر للمشردين!

والزوج الذي يحتويكِ نعمة، فانظري للأرامل!

والابن الذي يركض إليكَ نعمة، فانظرْ من حُرِمَ الإنجاب!

غارقون نحن في نعـــم الله،

مقصـــرون في شكر مُنعمِها،

فرددوا دوماً اللّهم لكَ الحمدَ: فبالشُّكر تدومُ النِّعم!

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

المعادلة بسيطة:

إن لم تستطع أن تتخلص من معصية،
فحاصرها بالطاعات!

إذا نظرتَ إلى ما لا يحلُّ لك، فتوضأ وصلِّ!
وإذا اغتبـتَ، فتصـدَّق!
إذا هزمكَ الشيطان مرةً،
فهناك ألف عبادة تردُّ له بها الصاعَ صاعيـن!
أنين المذنبين أحبُّ إلى الله من دعاء الطائعين،
الطائع قد يكون الشيطان يئس منه.
أما المذنب فما زال يخوضُ الحرب:
ينكسر بالمعصية، ويجبر نفسه الطاعة،
يتعثر بالذنب، ويقوم بالعبادة!
فما دمتَ تُذنـبُ وأنتَ منكسرٌ،
وترجعُ إلى الله وأنتَ في خجلٍ،
فـاطمئن فـإنّـكَ على خيرٍ!

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾

لا تنتظرْ الثنـــاء على كـل خيــرٍ تفعلــه،
ولا تبحَثْ عن التَّصفيق على كلِّ عملٍ بطوليٍّ،
عشْ بقلب أبيض،
ساعِدْ من يحتاج المساعدة،
وواسِ من يحتاج المواســاة،
أقِمْ متعثراً، وانصُر ضعيفاً،
اجعَلْ فعل الخير عادةً فيـك كالتنفس،
إذا تصدقتَ، فأشِحْ بنظركَ سريــعاً،
كي لا ترى انكسار الفقير أمام عينيك!
وما أنبل موسى عليه السَّلام حين قدَّم يد المساعدة
ثم مضى، فأثابه الله بما هو أجمل من كلمة شكر،
تذكَّر دوماً أنك تتعامل مع الكريم!

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

خطّطوا لقتله،

ثم قرّروا أن يفعلوا خير الشرّين،

رموه في الجُبّ، فبيع كما يُباع العبيد في الأسواق،

وعندما جاؤوه معتذرين، طوى الصّفحة سريعاً،

هكذا هم النبلاء، لا يذكرون الماضي:

كان مسعود الهمذاني كثير الصّفح عن الناس،

وإذا جاءه من يعتذرُ منه،

قال له: الماضي لا يُذكر!

وعندما ماتَ مسعود، رؤي في المنام،

فقيل له: ما فعلَ الله بكَ؟

قال: أوقفني بين يديه وقال لي:

يا مسعود الماضي لا يُذكر، خذوه إلى الجنة!

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

لن أخاصمك،
أنا لا أرفع سيفاً في وجه شخص أحببته،
لا تهون عليّ العشرة، ولن أنسى الفضل بيننا،
لكن حين تصل الأمور إلى طريق مسدود،
ويسقط شيء من الاحترام والثقة،
أتوضأ وأصلي ركعتين ثم أقول:
"اللهم اربط على قلبه وقلبي، وأبدله خيراً مني وأبدلني خيرًا منه"
ثم أسلّم وأمضي،
وأنا حين أمضي لا أعود!

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

لم يكن الخضر بطل القصة الوحيد.

موسى عليه السلام كان بطلاً أيضاً!

وحين أنكر على الخضر خرق السفينة،

لأن ظاهر الأمر عدوان،

وحين أنكر قتل الغلام،

لأن ظاهر الأمر جريمة.

بدا إنساناً صاحب مبادئ من الطراز الرفيع،

لا يسكت على ما يراه باطلاً،

ولا يُحابي الخضر رغم أنه قطع الأرض ليتعلم منه!

اللهمّ يقيناً كيقينِ موسى

لما رأى البحرَ أمامه،

وفرعونَ وراءَه،

وقومُه يقولون له:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

قال:

﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

ويقيناً كيقينِ النبيّ ﷺ

لما قالَ له أبو بكرٍ:

" لـو نظرَ أحدُهـم تحت قدميـه لرآنا"

فقال له ﷺ:

" يا أبا بكر ما ظنّك باثنَين الله ثالثهما"

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ
لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾

اللّهمّ شيئاً كهذا،
ربطاً على القلب،
يشبه الذي كان على قلب أم موسى!

﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾

اللّهم شيئاً كهذا:

لأمنياتنا، لانتظارنا، للهفتنا،

لما غابَ عن النّاس وعَلِمته أنتَ!

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمَاً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين ﴾

اللهم خفَــافاً لا لنــا ولا علينــا:

لا نُــؤذِي ولا نُــؤذَى،

لا نَجرَحُ ولا نُجـرَح،

لا نَهينُ ولا نُهــان.

اللهم عبوراً خفيفاً.

لا نشقى بأحدٍ ولا يشقى بنا أحد!

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾

هنا يستريحُ القلب،

ويطيبُ التسليم،

فمن ذا يُدبِّرُ الأمرَ كما يفعل صاحبُ الأمر؟

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾

ثقْ بالله،

أنّ في تأخير الأعطيات حكمة،

حتى وإن غـــابتْ عنـــــك.

وفي المنـــع رحمـة،

حتى وإن لم تدركها،

مع الوقت، ستدرك أن الله أراد لك

خيراً مما أردتَه لنفسك!

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾

أجمل اعتذار عن خوض صِراعٍ في التاريخ،
قاله هابيل لأخيه قابيل!
لا تدعهم يجعلونكَ أن تتنازلَ عن دينكَ،
ولو كلّفكَ الأمـر حياتـك!
نعـم، يعيـشُ المـرءُ دون ديـنٍ،
ولكن، هل سألتَ نفسكَ كيف يعيشُ؟
كالبهـائـم أكـرمـكَ الله.
يبحثُ عن أكبر قدرٍ من اللذة،
وعن أطـول وقـت للبقـاء،
ثم نهاية المطـافِ يمـوت!

أصل الشرور أربعة :

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

١- التعالي :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾

قالها إبليس

٢-الاستكبار :

﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾

قالتها عَادٌ

٣- الاستبداد :

﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴾

قالها فرعون

٤- الغرور :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

قالها قارون

﴿ لا يُكلّفُ اللهُ نفسًا إلا وسعَها ﴾

الله لا يضع ثماراً على غصن
لا يستطيـع حملهـا!
كلّ مسؤولية ألقاها الله على عاتقك،
أنتَ لهـا!
كلّ معـــركـة ألقـاكَ في غمـارهـا،
أنت لهـا!
كل ثغر كلّفك حراسته،
فهذا ثغرك فالزمـــه!
كلّ همّ وغمّ وحزنٍ أصـابـك،
أنت بحجمه، وقادر على حمله!
المصاعب والمصائب تقويك،
فلا تترك موقعك!

لا السّيارة جاؤوا من تلقاء أنفسهم،
ولا واردهم أدلى دلوه لأنه اختـــار،
ولا العزيز اشتراه لأنه شاء،
كــلُ مــا في الأمـــر أنَّ

﴿ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ﴾

أجمل ما تُقدّمه لأحدهم،

أن تَربِتَ على قلبه!

إنها سورة الكهف :

السّفينةُ التي لــــو لــــم تُثقب لسُلِـبتْ؛
يبتلي الله بالصغيرة لينجي من الكبيرة!
والغلام الذي لو لم يُقتل لأشقى والديــه؛
في أخــذ الله عطـــاء!
والجدار الذي لو لم يُقم؛
لضاع مال اليتيمين
أي وفاء هذا يا رب؟!
لذا مع كل ثقب،
وكــل فقــد،
وكــل نعمــة،
ردّد: "**اللهم صبراً على ما لم نحط به خبرا**"

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

لا القـــرآن سيخبـــو،

ولا الحجاب سيُخلـــع،

ولا الأذان سيسكـــت،

ولا الجهاد سيتوقف..

قافلة الإسلام سائرة،

من ركبَ فيها وصـــل،

ومن تخلّف عنهـا تاه،

" وليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار"

أمّا القريب فقال:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

وأمّا الغريب فقال:

﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾

إنّ الحُبّ رزق

وإنك لا تعرفُ في أي قلبٍ رزقك!

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

عندمـا يعلمُ هُـدهُـد
مـا خفـيَ على نبيّ،
فهذا درسٌ بليغٌ مفادهُ:
أن تواضعوا،
ما فاتنا من العلم أكثر مما أدركنا منه،
وكما قـال أبو نواس للنّظـام:
فقلْ لمن يدّعي في العلم فلسفة
علمتَ شيئاً وغـابَتْ عنكَ أشياءُ!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ
فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾

الصبيُّ الذي أُلقي في الجُبِّ،
وانتشلـــه دلــو،
وبيع بثمن بخس،
كان يُعدُّ على مهل ليكون عزيز مصر،
صفحـة قاسيـة في كتـاب أيامـك،
قـد تكـون مجـرد تمهيـد لأجمـل
صفحات حياتك، فأحسِنْ الظنّ بالله!

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾

لا تُحزنني نهاية العلاقات،
الحياة كلها ستنتهي يوماً،
إنما يُحزنني الطريقة التي تنتهي بها،
أحبُّ أن أخرج من علاقاتي بعناق،
كأنما أودِّعُ عزيزاً في المطار،
لا أن أخرج منها نازفاً،
كأنني كنتُ في معركة !

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

عندما أنصحك

فلستُ أقولُ لكَ: أنا خيرٌ منك

وانما أقول لكَ: أنا أتمنى الخير لك!

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾

لا عليك إن فاتتك الوفود المتّجهة

إلى الملوك،

المهم أن لا يفـوتك الوفد

المتّجـه إلى ملك الملوك!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

يا الله:

هذا اليقينُ الذي زرعتَه في قلب أم موسى،

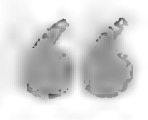
وهي تلقيـــه في النـهــر،

وكلها ثقة أنك ستعيده إليها،

ارزقني مثله!

”

مهما بلغَ الإنسان
من الصلاح...
فلا بُدَّ له من كاره
حتى الأنبياء لم
يحبهم كل الناس!



﴿إنَّ هؤلاء لشرذمة قليلون﴾

هذا ما قاله فرعون عن موسى عليه السلام
ومن معه،
هكذا هم الفراعنة دوماً
تغريهم أعداد قطعانهم

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

من كان يظن أن موسى عليه السلام،
الذي عمـــل راعيا لسنـــوات،
سيصبح بعد أعوام كليم الله؟!
وأن محمداً ﷺ،
الذي كان يرعى الغنم لسادة قريش،
لقاء أجر زهيد،
سيصبح بعد سنوات خاتم النبيين والمرسلين؟!
لعلَّ أجمـل أيام عمرك لم يـأتِ بعـــد،
قليـل من الجهـد،
وكثير من حسن الظن بالله،
سترى أن القـادم أجمـل!

إنَّ من أعظم نعم الله على عبده،
أن يُحببه إلى خلقه!

قال الله تعالى لموسى عليه السلام:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾

يقول ابن كثير:

ما رأى أحد موسى إلا أحبه!

قال ابن المكندر لأبي حازم:

يلقاني الناس فيدعون لي بالخير،

ما أعرفهم، وما صنعت معهم خيرًا

فقال أبو حازم: ذلك فضل الله،

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

مَنْ ضَاقَتْ عليه

فألهَمَه الله دُعاءَ يونس عليه السلام:

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

فقد هيّأَ له المُتّسع!

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾

قالها يعقوب عليه السّلام بعدما

فقَدَ ابنَه ...

وفقَدَ بصرَه ...

فأعاد الله إليه ابنَه وبصرَه!

فمن أراد أن يشكو،

فليكن الله وجهَتَه!

اللهم إنّي أسـألك على أوامـرك

تسليماً كتسليم نوح عليه السّلام

لمّا قلتَ له: ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾

لم يسألكَ: وماذا تفعلُ سفينةٌ في الصحراء يا رب؟!

مــن لطــائف مــا قــرأتُ في التفســيــر
قول الإمام القشيري عن قول سيدنا سليمان
عن الهدهد:
﴿ لأعذّبنّهُ عذابا شديدا ﴾
قــال العــذاب الشــديد،
أن يُفَرّقَ بينه وبين مَنْ يُحِبُّ،
فإن الفرقة عن الحبيب تجعل المرء
كــأنمــا يتنـفسُ من خــرم إبــرة!

في يــوم عاشوراء

وصل موسى عليه السلام إلى الشاطىء

لم يكن هناك مفرٌّ

البحرُ أمامــه ...

وفرعون وراءه ...

وبنو إسرائيل يقولون له: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

ولكنــه أجـابهـم إجابـة الواثـق بربـه

﴿ كلا، إنَّ معيَ ربِي سيهدين ﴾

اللهــمَّ يقيناً بــكَ كيقين مــوسى،

وتصديقاً بوعدكَ كتصديق موسى،

وثقة بك كثقة موسى!

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾

أجمل صور الحُب هو الحثُّ على الطاعة،

فمن لا يهتم بآخرتك لا يهتمُّ بك،

إذا رأيتَ صديقاً على المعصية، ولم تنصحه،

فاعلمْ أن حبّك له ناقص!

أتخاف جرح مشاعره، ولا تخاف عليه من النار؟!

خُذْ بأيدي أحبابك إلى الجنة،

من رأيته على طاعة، فأثنِ عليه!

ومن رأيته على معصية،

فأعِدهُ إلى الله، ولو جراً من رقبته!

قال عمر بن عبد العزيز لصاحبه: إذا رأيتني قد ضللتُ الطريق،

فخُذْ بمجامع ثيابي وهزّني هزاً عنيفاً،

وقُلْ لي: يا عُمر اتّقِ الله فإنّك ستموت!

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

كلّ هـروب يلزمـه بالضـرورة جبـان،
وحده الهروب إلى الله حرفة الشجعان!

الهروب إلى الله هروب منتصر، لا هروب مهـزوم،
وقـرار شخص قوي، لا قـرار شخـص ضعيـف!
ثمّة بطولات من نوع آخر:
أن تمتنع عن المعصية وأنت قادر عليها، بطولـة!
وأن تعـود منكسراً بعـد كلّ معصيـة، بطولـة!
وأن ترفع عنك غطاءك لتقوم لصلاة الفجر، بطولة!
ليست البطولة في قوة العضلات فحسب!
صعد عبد الله بن مسعود يوماً إلى شجرة،
فضحك الصّحـابة من دقّـة سـاقيْـه،
فقال لهم النبيُّ ﷺ : والذي نفسي بيده،
لهمـا أثقل في الميزان من جبـل أحد!

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾

عندما يستخدمكَ اللّه لخدمة دينه،

فاعلم أنَه قد اطلّعَ على قلبكَ فارتضاه،

إنّ الإنسان وهو إنسان، يأنف أن يستخدم أداة متّسخة في عمله، فكيف بالله وهو الله!

فكلّ من كان في غير طريق الله،

فاعلمْ أنّ الله قد اطّلعَ على قلبه، فأنفَ منه،

لا تحسد المشاهير في توافه الأمور،

لو أحبّهم الله، لاستخدمهم في طاعته،

ولا تحسد أصحاب المليارات الذين ليس لهم أعمال خير،

ولو أحبهم الله ما استغنى عنهم!

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

قصيرة، مهما طالت بنظرك!

وقد قيل لنوح عليه السلام، لماذا اتخذت بيتاً من قصب؟

فقال: هذا بيت الراحل!

عاش أكثر من ألف سنة، وكان يراها قصيرة.

وقال النبيُّ ﷺ: ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرةٍ ثم راح يتركها!

صغيرة، وإن كبرت في عينيك!

فلو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء!

زائلة، وإن حسبتها تبقى!

قال الخليفة المنصور للربيع: ما أطيب الحياة لولا الموت.

فقال له الربيع: ما طابت الدنيا إلا بالموت!

فقال له المنصور: وكيف ذاك؟

فقال له: لولا الموت ما وصلت الخلافة إليك!

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

وترى المتجبّر العــاصي يغترُّ بقوّته ويسـأل:
لماذا لم يعاقبني الله؟!
أيّها الجاهل: وأيُّ عقوبة أقسى مما أنتَ فيه؟!
تمرُّ بكَ الجنازة فلا تعتبرُ،
وتسمعُ بالآية تتحدثُ عن الموت فــلا تتعظ،
وترى المسكين فلا يرقّ لكَ قلبه.
ثم ما زلتَ تسأل: أين العقــاب؟!
أي عقاب أقسى من أن يكون قلب المرء مقبرة؟!
كان ابن القيّم يقول:
ما ضُربَ عبدٌ بعقوبةٍ أكبر من قسوة القلب!

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾

انظُرْ في الكائنات من حولك:
الطّيور، والأسماك، والضفادع، والأفاعي، والبكتيريا،
وكلّ الحيوانات،
ليس لهـا ملابس فيهـا جيـوب،
ولا يوجد لديهـا حسـابات بنكيـة،
ولا ضمان صحيٌّ، ولا راتب شيخوخة،
تنهضُ في الصّباح وكلُّها ثقة بربها أنه سيرزقها،
فلا تجد حيواناً يموتُ من الجـوع!

فسلّمْ أمرك للّه!

يروي أهل الأخبار أنّ سليمان عليه السلام قال للنّملة:
كم حبةً تأكلين في العـام؟
فقـالت: حبتين
فوضعها في صندوق، وضـع معهـا حبتين،
وبعد سنة عاد فوجدها قد أكلتْ حبة واحدة،
فسألها عن السبب.
فقالتْ: عندما كنتُ طليقةً، كان أمري بيد الله،
وكنتُ أعـرفُ أنـه لـن ينسـاني،
فلما صار أمري إليكَ خشيتُ أن تنساني!

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾

يا لَهُ من دُعاء!

مَن ذاق لذّة القرب من الله،

خف من وحشة البعد عنه!

فسلوا الله أن لا يحرمكم لذّة قربه!

فكم من إنسان قد اقترب، ثم انتكسَ!

وكم إنسان أقبل على الله، ثم أدبرَ!

هؤلاء، حسبوا الثبات أمراً بأيديهم،

فصدّهم الله عن بابه.

وإنّ الطائع يخاف أن يترك طاعته،

أكثر ممّا يخاف العاصي من معصيته!

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

غـــابـــوا عـــن عيـــون النّـــاس،
ولكنّهم عرفوا أنّ عين الله ترقبهـم،
فتركوا الحـــرام رغم قدرتهم عليه،
وكبتوا الشهوات رغم كل الإغـراءات،
وهجروا المعاصي رغم سهولة فعلها،
ما دفعـــوا الشهوة عن كـره لهـــا،
وما امتنعوا عن المال الحرام كراهية بالمال،
وإنما تركوها لله!
استشعَروا نظره إليهم، فاستحيوا منه!
وهذه هي الخشية بالغيب:
تركُ المعصية رغم الأمنِ من الفضيحة!

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾

ظنَّتْ بلقيسُ أن الصَّرحَ الممرَّد من زجاجٍ، ماءً
فكشفتْ عن ساقيها لتعبره،
إلى هذه الدرجة كـان ثوبهـا طويـلاً وسـاتراً،
فالستر لباس الملكات منذ فجر التاريخ،
أمـا التَعرّي، وإظهـار المفـاتن، فكـان للغواني
اللواتي يسعين بهذا لإيقاع الرجال في شِراك فتنتهنَّ.
انظري إلى لباسك، ثم صنّفي نفسـك:
مع الملكات كبلقيس، أم مع الأخريـات؟!

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾

القلوب تزيغ، والمثبّت الله!

فمهما بلغ الإيمان في قلبك، لا تتوقف عن سؤال الثبات.

وكان أكثرُ دعاءِ النبي ﷺ:

اللّهم يا مقلّبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك!

هــذا، وهو نبيّ الأمّــة، وأفضــل الخلــق!

لولا تثبيت الله لقلوب عباده، لَلَعِبَتْ بهم الشياطين،

ولما قام أحدٌ منهم بأمر الله،

كان فتية الكهف على دين الحق، ومدينتهم كلّها تعبد الأوثان!

فلمّا ربطَ الله على قلوبهم، هــانَ عندهم كل شيء!

وأم موسى عليه السلام من قبل حين ألقته في اليمّ،

لــولا أن ربطَ الله على قلبهــا، لــم تفعــل!

فسَلِ الله دوماً الثباتَ وأن يربطَ على قلبك!

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

حياتُك كتاب ستقرأه يوم القيامة بين يدي الله،
فحذار أن تكون مؤلِّفاً سيِّئاً!
اُكتبْ اليوم ما لا تخجل أن تقرأه هناك غداً!
وما زال كتابك بيدك،
ومعكَ ممحاة الاستغفار، لتمحو بها ذنوبكَ،
وصفحات بيضاء كثيرة، لتكتب فيها سطوراً مشرقة،
اجعل لكَ صفحاتٍ من صدقة،
وفقرات من جبر الخواطر،
وسطوراً من قيام الليل،
ولو حتى فاصلةً من صيام التّطوّع!
صحيح أنّه لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله،
فحتّى النبيُّ ﷺ سيدخلها برحمة الله،
ولكنّ الأعمال الصالحة مجلبة لرحمته سبحانه!

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾

يعلمُ الله سبحانه أنّ رجلاً شديداً لا يقوى على هزّ
نخلة،
فما بالكَ بامرأة قد وضعتْ مولوداً للتوّ!
ولكنّه، حين قال لها: هُزي،
فقد أراد منّا أن نأخذ بالأسباب.
وليعلّمنـــا أن السّعي مطلـــوب.
فالله سبحانه يخلقُ الدودة أو حبّة القمح
للعصفور، ولكنّه لا يلقيها له في عشّـــه!
الذي رزقَ مريم ولداً دون زوج،
كان قادراً أن يُسقط عليها الرُّطب دون هزّ الجذع،
ولكن أراد منّا أن نبذل الجهد والطـــاقة ونسعى،
ثمّ نعلمَ يقيناً أنّها مجرّد أسباب. لا تنفع ولا تضر!

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾

تمرُّ بالإنسان لحظات تضيقُ الدّنيا في عينيه،
ويشعر أنّ هذا الكوكب كلّه جـاثم على صدره،
لا من قلّة الإيمان، ولكن من قسـوة الحيـاة!
كانت مريم راسخة الإيمان، عميقة الثّقة بالله،
ولكنّ الخطب جـلل، والحـدثَ عظيـم،
ولدٌ دونَ أب ستأتي به إلى قوم قساة القلوب،
فضـاقتْ بهـا الدنيـا!
تكسرنا الحوادثُ أحياناً،
وتمرُّ بنا أيام ثِقال، نحسبها لن تمضي،
عِش إنسانيتك بضعفها، وقوّتها،
ولكن في كـلا الحـالتين،
كُن مع الله يكُن الله معك!

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي
قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾

لـــو استغنى أحدٌ عن المواساة في ظروفه الصعبة،
لكانت مريم البتول الراسخة في إيمانها أغنى الناس!
ولكنّنا نهاية المطاف بشر، ونحتاج من يربُت على
قلوبنا!

فإذا رأيتَ إنساناً منطفئاً، فاربتْ على قلبه،
وطيِّبْ خـــاطره حتى يُضيء مجـــدداً!

أبو بكر الصديق خير الناس بعد الأنبياء وأرفعهم
إيماناً،
ولكن النبيَّ ﷺ في الغار يربّتُ على قلبه ويقول:
يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!
يا أبا بكر، لا تحزن إنَّ الله معنا!
حتى النبيُّ ﷺ، عندما ماتت خديجة، وعمه أبو
طالب، وفقد أشرسَ مقاتلين معه.
علمَ الله حزنه وانكسار قلبه،
فكانت حادثة الإسراء والمعراج، حيث أخذه الله إلى
السماء ليعزيه،

أحياناً، تضيقُ الأمور حتى أن الدنيا كلها
لا تكفي أن تكون عزاءً!

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

الصبرُ في ذات الله عبادة عظيمة:

صبرٌ عن المعاصي، وصبرٌ على الطاعات،

أن تكبتَ شهوتكَ وأنتَ قادر على إنفاذها،

وأن تغضَّ بصركَ والمشهد مُغرٍ،

أن تمتنع عن الرشوة والأمر ميسور لا فضيحة فيه،

كل هذا صبر عن المعاصي وأجره عند الله عظيم!

وأن تتصدقَ وفيك حُبُّ المال غريـزة،

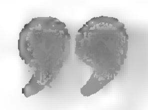
وأن تنهضَ لصلاة الفجر والنوم لذيذ،

وأن تمشي في برّ أبويـك وكـلّ حيـاتـك مشــاغـل،

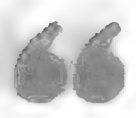
هذا أيضاً صبر على الطّاعات وأجره عند الله عظيم!

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾

بدأ سليمان عليه السلام دعاءه بالتوبة والاستغفار،
وهذا من فَهْم الأنبياء وفقههم،
لأنه لا شيء أمنعُ من إجـابة الدعـاء كالذنـوب!
وربما سأل العبدُ ربّه شيئاً،
فما حال بينه وبين الإجابة إلا ذنبٌ هو مقيم عليه،
فـإذا تأخرت الإجـابـة فراجـع حسابـاتـك،
وانظرْ في الذنوب التي أنتَ غارقٌ فيها، فبسببها
حُبست الإجابة!
ولا تعتقدْ أنكَ لم تُعطَ لأنكَ سألتَ كثيراً،
لا شيء كثيرٌ على الله!
وهذا سليمان عليه السلام سأل تسخير الجنّ له
والريح ولغة الطير.
فأعطاه الله كل هذا، ولكنه بدأ أولاً بالتوبة قبل السؤال!



المال الذي يجعلك
متكبراً فقر..
والشهادة التي تجعلك
متكبراً جهل..
والمنصب الذي يجعلك
متكبراً انحطاط !



﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾

هكذا كان إبراهيم عليه السّلام عندهم: مجرّد فتى!
أما عند الله فكان أمّة!
غُيِّرَ لأجله قوانين الكون كلها،
ألقي في النار فكانت عليه برداً وسلاماً،
بلغتْ زوجته سارة من العمر عتياً وصارت عجوزاً،
فأصلحها الله له، لتنجب له إسحاق عليه السّلام
وعندما أراد الفرعون أن يستأثر بسارة،
كشفَ الله له سبحانه حجب الغيب،
فكان يرى المشهد ليطمئن قلبه،
فلا تبحثْ عن قيمتك في أعين الناس،
قيمتك الحقيقية هي: من أنتَ عند الله؟

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

سلاماً للذين لا يأخذون كلّ شيءٍ على محمل الجِد،
الذين لا يبكون عند كل عثرة،
ولا يقفـــون عند كـل كلمـــة،
ولا يُعلّقون أخطاءهم على شمّاعة الآخرين،
الذين يعلمون أنّ الدنــيا أســود وأبيـــضٍ،
وأن الشرّ جزء منهـــا كمـــا الخير تماماً،
الذين يُؤمنــون أنهـــا طريـــق عبـــور،
وأن الرّضا عن الله أسلم مراكبِ العبور!

﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾

أمّا بعد.

العباداتُ قبل العَادَات،

والحَرامُ قبل العَيب،

والشرعُ قبل الواقع،

والسُّنةُ قبل المألوف،

والله قبل النَاس،

والسّلام!

عندَ العزيز

كان يقدرُ على الخطيئةَ لكنّه قال:

﴿ معاذ الله ﴾

عند الملك

كان يقدر على الانتقام لكنّه قال:

﴿ يغفر الله لكم ﴾

قيمتنا أحيانا في ما لا نفعل!

وحدكَ يا الله

كنتَ ترى الوجع في قلب يعقوب

حين قال :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾

اللهمّ إنّ شيئاً في القلب كهـــذا الآن،

فَبرحمتك، قُلْ لفرحة يعقوب بيوسف

أن تمرّ بي!

تتأخر الإجـــابـة

لأنّ في قدر الله رُتبة لك،

لــم تصــل إليهــا بعـــد!

ولأنّ في القـــلبِ قسوة،

يريدُ الله أن يُلينَها لك!

وتتأخر الإجابة،

لتَحطَّ عنك كل عُجبٍ بطاعتك،

وكل غرور بقلبك،

وكل مقارنة فاسدة حسبتَ فيها أنك أفضل من غيرك،

وكلّ عاصٍ نظرتَ إليه بعين الازدراء بدل الرحمة..

ثمّ بعد ذلك يستجيب!

ونعوذُ بكَ،

أن تَزِلَ الأقدامُ بعد ثبوتها!

ونعوذُ بكَ،

أن نأتيَ ما كنا ننهى النَّاسَ عنه!

ونعوذُ بكَ،

أن تملأنا طاعاتنا بالعُجب!

ونعوذُ بكَ،

أن ننظر للعصاة بعين الاحتقار بدل عين الرحمة!

ونعوذُ بكَ،

من نعمة تُطغينا!

ونعوذُ بكَ،

من مصيبة تُسخطنا على قضائك!

نعوذُ بكَ منكَ،

ونهربُ منكَ إليكَ!

عن النّبي العظيم موسى عليه السلام:

أمه: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي ﴾

أمه الثانية: ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾

أخته: ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾

زوجته: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾

لا يوجد رجلٌ عظيمٌ ليس للنساء يد فيه!

اللهمّ يقيناً كيقين موسى،
لمـا رأى البحرَ أمـامه،
وفرعونُ وراءَه،
وقومُه يقولون له: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾
فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

ويقيناً كيقين النبيﷺ
لما قال له أبو بكر: لو نظرَ أحدُهم تحت قدميـه لرآنا
فقال له النبيﷺ: **يا أبـا بكر مـا ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!**

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾

ثمّة كلام يُشبه العناق،

ثمّة مفردات كأنهـا حضن،

تضيقُ بنا الدنيا أحيـــاناً،

فتأتي كلمة حانيةٌ من صديقٍ لتوسعها،

وينكسر الخـاطر أحـياناً،

فتأتي لمسـة حانية من حبيبٍ لتجبره،

ويحزن القلب أحيـــاناً،

فيأتي عناق من قـريب ليفـرحه!

ما نحن في هذه الدنيا إلا ضيوف.

فهوّنوا على بعضكـم الطـريـق!

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾

جاعَ موسى عليه السّلام،
ملأَ بكاؤه قصر فرعون.
كلّهم أشفقوا عليه،
ولكنّ الله الذي حرّم عليه المراضع،
كان الأرحم به،
أراد أن يردّه إلى أمّه!
لو أنّنا نستشعر رحمة الله في كل حرمان،
وحكمته في كل منع،
لهانتْ علينا الطريق!

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾

عندما لا يعرفون قيمتك،

تذكّر أن موسى والخضر عليهما السّلام

لم يجدا يوماً من يفتح لهما بابه.

ويطعمهما لقمة خبز،

يكفيك أن تعرف نفسك وإن جهلوك.

وأن تضع رأسك على وسادتك وضميرك مرتاح، وإن اتهموك!

عندما وصل موسى عليه السّلام إلى مَديَن،

لم يكن لديه بيت،

ولا وظيفـــة،

ولا زوجـــة،

صنعَ معروفاً وتولّى إلى الظّل،

ورفع يديه إلى السماء وقـال:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

لـم تغـــرب شمـس ذلك اليـوم،

إلاّ وصار لديه بيت، ووظيفة، وزوجة!

جرّبوا هذا الدّعاء بعد كل معروف تصنعونه!

كلّمـا ضاقتْ تذكّرْ:

كيف أبحرَ نوحٌ بالسّفينة في موج كالجبال،

وكيـف سَلِمَ إبراهيمُ من النّــارْ.

وكيف نجا يونس في بطنِ الحوت،

وكيف شقّ موسى البحر بعصـــاه،

أجمل ما في فرج الله

أنه يأتي بعد أن تنقطعَ كلّ الأسـباب،

ولا يبقى في قلب العبد إلا اللّه!

بدعاء واحد:

أغرقَ اللهُ الأرضَ انتصاراً لعبده نوح!

بدعاء واحد:

أصلحَ اللهُ الزوجةَ العاقر لعبدِه زكريا!

بدعاء واحد:

جعل اللهُ بطنَ الحوتِ أمناً على عبده يونس!

بدعاء واحد من إبراهيم:

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾

صارت مكة مهوى القلوب!

ثقْ أنّ الدعاء يعيد ترتيب ما تبعثر!

اللهم صبراً على أوامرك كصبر هاجر:
تركها إبراهيم عليه السّـلام وابنهـا.
في واد غير ذي زرع:
لا ماء فيه ولا أنيس،
كل هذه كانت تفاصيل لا تعنيهـا.
لم تسأل غير سؤال جوهريّ واحد
"الله أمـرك"؟!
فلما قال لها: أجل.
قالت: اذهب. فلن يضيعنا الله!
اللهـم قلبا كهذا،
إيمـانا كهـذا،
يقينـا كهـذا،
صبـرا كهـذا!

أحضرَ عرشَ بلقيس

من اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين

ثم قال:

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾

وذو القرنين،

جاء بزُبَر الحديد، وجعله ناراً، وأفرغه قطـراً،

وصنع ردماً عظيماً سجن خلفه يأجوج ومأجوج.

ثم قال:

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾

أدب الإنجاز ردُّه إلى توفيق الله!

لكلِّ حاجـة سألتَها الله مستغنياً عن النّـاس،
لكلِّ أمنية استودعتَها ربّك،
لكلِّ دعوة دعوتَ بها ونسيتَها ولم ينسهـا الله،
لكلِّ حاجة من فرط الرغبة بها دمعتْ عيناك:
لكلِّ هؤلاء قل بيقين:

﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

أوّل سلاح قتال استُخدم على وجه الأرض
كان الدُّعاء!
تحديداً يوم رفع نوح عليه السّلام يديه إلى السّماء
وقال:
﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَاراً﴾

احذروا أولئك الذين ليس لهم إلا الله ملجأً
وليس لهم إلا الدّعاء سلاحاً!

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

لم يكن أحد من قاطني هذا الكوكب يعرفُ أن الأرض كانت تلك الليلة على موعد مع السماء !

ولم يكن أحدٌ يتصوّر أنّه من غار مظلم في مكة، سيخرج نورٌ يضيء هذه الأرض عن آخرها !

كانت الأرض عطشى للسماء، فجبريل منذ ما يزيد على خمسمئة سنة لم ينزل بتعليمات السمــاء إلى الأرض! وكان هذا الكوكب يغصُّ بالضلالة. بقايا من أهل الكتاب حرّفوا كتبهم، وأكثريّة تعبد ما تنحت من صخر وتأكل ما تعبد من تمر !

ثم حانت اللحظة التي شاء فيها الله
أن يضع حداً لكل هذا!

الأميّ في الغار ستنزل عليه "اقرأ" ويعلّم المتعلمين والجهلة على حد السواء!

اليتيم الذي فقد أبويه سيرشد الآباء وينظم حياة الأمهات!

الراعي الذي يرعى غنماً لقريش لقاء دراهم معدودة سيكون على عاتقه رعاية البشرية قاطبة!

الزوج الذي يتاجر بمال زوجته سينظّم اقتصاد هذا العالم!

الصادق الأمين سيستلم بدءاً
مـن هـذه الليلـة أمـانتـه!

كان الكهف مظلماً، وهو مستغرق يتأمل منه سماءً شاسعةً، وصحراءً مترامية، وفي قرارة نفسه أن هذا المشهد أجلّ من أن يكون من صنعة صنم صنعه عبد حبشيّ ليعبده سادة قريش!

وإذ بجبريل أمامه

دون مقدمات يقول له: اقرأ

فيجيب: ما أنا بقارىء!

فيعيد عليه: اقرأ

فيجيبه أخرى: ما أنا بقارىء!

فيقول له ثالثة: اقرأ

فيقول: ما أقرأ؟

فيجذبه بقوة ويقول له:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

فما الدروس التي نستفيدها من الآية؟

الدّرس الأوّل :

أوّل كلمة في القرآن كانت "اقرأ" ولم تكن صلِّ وصُم، ذاك أن العبادات لا بدّ أن يسبقها علمٌ وعقيدة! الصلاة دون علم وعقيدة قد تُصبح مجرّد رياضة، والصيام دون علم وعقيدة قد يصبح ريجيماً ليس إلا، والطواف والسعي دون علم وعقيدة قد يصبحان محاولة لتخسيس الوزن!

لم يقل له جاهد، لأن الجهاد دون علم وعقيدة سيجعل المجاهدين قتلةً، وقطاع طرق

ولم يقل له تاجر، لأن التجارة دون علم وعقيدة ستخلط الحلال بالحرام

إن الله لا يُعبد عن جهل!

والكتاب الذي بدأ ب "اقرأ" لا يرضى لأصحابه أن يكونوا جهلاء وأصحاب أهواء!

الدّرس الثاني :

عندما نزل من الغار كان خائفاً يرتجف ويتصبب عرقاً في آن معاً، لم يذهب إلى عمه حمزة وهو صائد الأسود ليحميه، ولم يذهب إلى أبي بكر صديقه المخلص ليخفف عنه،

ولم يذهب إلى دار الندوة وفيها رؤوس قريش ليتضامنوا معه،
ذهب إلى خديجة لأنها كانت عمّه وصديقه وقبيلته كلّها. كانت تترك مالها كله بين يديه لأنها كانت تعرف أنه من العيب أن يجتمع زوج وزوجته في فراش ويفرقهما دينار!
كانت أبوه الذي لم يعرفه،
وأمّه التي فقدها صغيراً،
وجـــده الـــذي كفلـه،
وإخوته الذين لم يأتوا إلى الدنيا!
وكان معها وفيا،
لم يتزوّج امرأة في حياتها: ذاك أن بعض النساء يجعلن الأخريات مجرّد أرقام وبفقدهنّ تصبح كل النساء سواء!
تغار منها عائشة وهي في قبرها وتقول له: أما زلت تذكرها، وقد أبدلك الله خيراً منها
فيقــول له: والله مـــا أبدلني الله خيراً من خديجــة!
يا للوفـاء!
لا يجبر خاطر حيّ على حساب ميت أضاء له أصابعه العشر شمعا!
وعندما تجاوز الستين من العمر، رأى صاحباتها وقد شارفنَ على الثمانين،
فخلع رداءه ليجلسن عليه، ونظر لمن حوله يزيل عنهم الدهشة،
يقول: هؤلاء صويحبات خديجة!

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

دُنيا يُباع فيهـا يوسـف،
ويُكـذّب فيهـا نـوح،
ويرمى فيها للنار إبراهيم،
ويُتّهم فيها بالسحر موسى،
ويُقدَّم فيها مهرا لبغيّ رأس زكريا،
ويُرجم فيها بالحجارة محمّد ﷺ،
أتنتظرُ منها بعد ذلك أن تربّت على كتفك أنت؟!

هذا الكوكبُ عاق!

ومن رحمته سبحانه أنّه جعله دار زراعة لا دار حصاد!
فازرع فيها ما يسرك غدا أن يكون محصولك، ودعك منهم!
فالعفيفـة عنـد النـاس، مُعقّـدة!
والملتزم بدينه عند الناس، متزمت!
والمجاهد في سبيل الله عند الناس، إرهابي!
والمتصدّق عند الناس، مبذر لماله!
والمشّاءُ إلى المساجد عند الناس، ليس لديه مكان آخر يذهب إليه! والقارىء النهم عند الناس، "دقة قديمة" رغم أننا أمة "اقرأ!"
أن تكون "أنت" وتنزل من عينهم، أفضل ألف مرة من أن تكون "هُم" وتنزل من عين نفسك!

﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾

الباطلُ يكسبُ معركة، ولكنّ الحقّ يكسبُ الحرب!

كسبَ النمرودُ معركةً، ولكنّ إبراهيمَ عليه السلام كسبَ الحرب!

كسبَ فرعونُ معركةً، ولكنّ موسى عليه السلام كسبَ الحرب!

وخرجَ محمدٌ ﷺ من مكة متسللاً تحت جنح الظلام، فعاد إليها في وضح النهار ودخلها من أبوابها الأربعة!

لا يفتننّكَ الباطل لأنـــه كسبَ معـركةً،

ولا تفقدْ ثقتكَ بالحقّ لأنه لم يكسب الحربَ بعد!

يملي الله للباطل لأنه يـــريد أن يُعرّيــه،

ويُؤخّر انتصار الحق لأنه يريد أن ينقّيه!

إذا بلغ الباطلُ ذروته فهذا يعني أن انتصار الحق اقترب!

سُنة الله في الكون أنه ما بلغ شيءٌ تمامه، إلا وبدأ رحلة القهقرى!

فتذكر أن أشدّ ساعات الليل ظُلمة، هي تلك التي تسبق الفجر بقليل!

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

الأمر لم يتعلق يوماً بالشّموع والمصابيح والقناديل،
الأمر كان دوماً متعلقاً بالقلوب!
ما ضرَك لو أطفأ هذا العالم أضواءه كلها في وجهك ما دامَ النُّور في قلبك متوهجاً،
وما نفعك نور الشمس والقمر معاً ولو وقفا فوق كتفك ما دام قلبك دامساً، انظرْ إلى يونس عليه السّلام وقد اجتمعتْ عليه ظُلماتٌ ثلاث:
ظُلمة الليل،
وظُلمة البحر،
وظُلمة بطن الحوت!
فهل ضرّه ذلك في شيء؟!
كل ظُلمة ليستْ في القلب أمرها يسير!
وانظُرْ إليه: نبيّ مُرسل، عصمه الله من الكذب والفاحشة والرياء، ولما غضب كان غضبه لله!
ثمّ لمّا صار في بطن الحوت ينادي ربه:
لا إله إلا أنتَ سُبحانك إني كنتُ من الظالمين
من الظالمين، وهو المعصوم!
ما أحسن أدب يونس مع ربه،

وما أجمل مناجاته:

يتقرّب إلى الله بتقصير يراه في نفسه، ولا يفخر بطاعة أدّاها،

ونحن إذا صلى أحدنا ركعتين، فكأنما ضمن الجنة، لا يمنعه عنها إلا أن يموت!

تفقدوا قلوبكم، ماذا ينفع كوكب مضيء عن آخره لقلب مظلم؟!

وتذكروا دوماً:

كل عتمة خارج القلب أمرها يسير!

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرّجيم﴾

الكلام على لسان امرأة عمران؛
والأنثى الوليدة محور الآية هي مريم عليها السّلام،
والقصة باختصار حتى نفهم المُراد من هذه التأملة:
هي أن حنّة امرأة عمران قد تأخرت في الإنجاب بعد
مضي سنوات على زواجها.
فنذرت إن وهبها الله ولداً، أن تفرغه للعبادة وخدمة
بيت المقدس، ولكنّ المولود كان أُنثى، ولم يكن
من عادتهم في ذاك الزمان أن تنقطع المرأة للعبادة
في الأديرة،
ولكنّهم رحبّوا بمريم لمكانة عمران بينهم!
واختصموا كل يريد أن يرعاها، ولجأوا للقرعة،
وكانت القرعة أن يُلقوا أقلامهم في الماء، فمن جاء
قلمه واقفاً، نال شرف رعاية مريم،
وأعادوا القرعة ثلاث مرات، وفي كل مرة يأتي قلم
زكريا عليه السلام واقفاً، فكفّلها!
وزكريا هو زوج خالة مريم،
والذي يعنينا من الآية ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾

شاع الاعتقاد عند الناس أن هذه الآية انتقاص من الإناث، وتفضيل الذكور عليهنّ مطلقاً،
وهذا مفهوم خاطئ،
ولو كـانت الآية: وليـس الأنثى كـالذكـر،
لأريد به تفضيل الذكور على الإناث عموماً.
أمـا والآية وليس الذكـر كالأنثى،
والكاف للتشبيـه، والأنثى مشبه بـه
فقد أراد النص التمييز لا الانتقاص!
هذا يعني أن المرأة أفضل من الرجال في مجالات،
وأن الرجال أفضل من النساء في مجـالات أخرى!
والاعتقاد أن الرجل أفضل من المرأة في كل وجه فهم ذكوريّ للآية،
وتعصّب للنوع لا مبرر له!
وحين يخبرنا الله أن المرأة مخلوق مغاير للرجل،
في بنـائهـا الجسميّ وتـركيبهـا النفسـيّ،
فـإنه يريد أن يميّزهـا.
والتمييز رفعة لا انتقاص!
الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل مطلقـاً،
إنما يهينون المرأة من حيث يعلمون أو لا يعلمون!
إنهم بهذا المفهوم يحطّون من قيمة المرأة، إذ يجعلون ميّزتها الوحيدة عن الرجل هي أنها وعاء إنجـاب!
لا شك أن الناس سواسية في الكرامة الإنسانيّة.

وهذا ما دأب الإسلام يثبته ويدافع عنـــه،
ولكن المرأة هي المرأة، والرجل هو الرجل؛
لكل منهما تركيبه النفسيّ،
ووظيفته في الحياة التي تتوافق مع تركيبه هذا،
وحين أسقط الإسلام الجهاد عن المرأة مثـلا،
لـــم يكـن هذا الإعفـــاء على سبيـــل نقـص،
بقدر ما هو شهادة تكريم !
أليس لأن الإسلام يعتبر أن المرأة مخلوق رقيق.
لها دور في الحياة يتناسب مع هذه الرقة التي حباها الله إياها،
إنّ أقسى جملة تُقال لامرأة: أنتِ كالرجال !
تثور المرأة لها ويجن جنونهـا،
ليس لأن الرجل مخلوق مخيف،
بل **لأن المرأة تعرف أن أجمل ما فيها أنوثتها !**
أجل ليس الذكر كالأنثى
أنتن بهذا الخطاب تُكرَّمن ولا تُنتقصن !
أنتن أجمـل من الرجـــال في الشكـــل،
وأرق منهم في العاطفة.
وأصـــدق في الحـــب،
وأصبر على القيام بأعبـــاء الأسـرة،
وأقدر على تحمل التبعات الناجمة عنه.
وإني لأقسم أن الرجال لو كان بإمكانهم الحمل والانجاب، لن ينجب الرجل أكثر من بطن واحد !
ولكنها المرأة العظيمة القديرة،

ترى الموت وهي تضع وليــــداً،
ثم ما تلبث غريزة الأمومة أن تستعر فيها لتعيد الكرّة،
وتمنح هذا الكوكب الحيـــاة،
نحن مخلوقون من التراب: نعمل، ونكد، ونشقى، ونتنتج!
أنتن مخلوقات من ضلع قرب القلب!
لهـــذا تخفقــنَ بالحـــب،
لهذا أنتن تعشقن بجنــــون،
تجد المرأة في رجل واحد دنياها،
بينما أحدنا لا تكفيه نساء الأرض!
لا توافقوهنّ في قولهم أنكنّ يجب أن تتساوينَ بالرجال،
أنتنّ تستحققنّ أن تتميزن!
أن تبقين هذا الجانب الرقيق والعذب والجميل
للبشرية، هذا الكوكب لا يحتاج مزيدا من الرجال.
يكفيه رجاله، يكفيه محاربوه، ومصارعوه، وتجاره،
وعماله، ومهندسوه!
ولكنّه ينقصه الحب!
والحب هو أساس قوتكنّ،
فلا تسمحن لهم أن يسرقوا أنوثتكنّ باسم المساواة،
ابقينَ نساءً وافخرنَ!
ابقينَ هذا المخلوق الرقيق،
وقاتلن بشراسة كالرجال دفاعاً عن أنوثتكن!

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

هذه واحدة من أكثر الآيات التي كانت مثار جدل بين المفسّرين،

إن لم تكن الأكثر!

فقد اختلفوا فيها اختلاف النقيض للنقيض،

وإن اتفقوا جميعاً على أن يوسف لم يقع بالفاحشة،

فقد اختلفوا في تفسير الهمّ!

والغالبية العظمى من المفسّرين تقول أنّ يوسف قد همّ فعلا ليواقعها، فلما رأى برهان ربه ارتدع!

وبرهان ربه على رأي الفريقين كان صورة يعقوب عليه السلام!

فماذا تقول اللغة في هذا الشأن؟!

أولاً:

الهمّ لغةً كما في لسان العرب هو حديث النّفس بالشيء،

أي قبل أن يصير فعلا،

وهذا معنىً معروف عند العرب،

ونتكىء على الحديث الشريف لتفسير الهمّ!

قال عليه الصلاة والسلام:

من همّ بحسنة ولم يفعلها كُتبت له حسنة!

أي من حدثته نفسه بحسنة وعزم على فعلها،
إذا. هي في منزلة الفكرة لا في منزلة الفعل!
وبما أن الفعل مراودة، أي مفاعلة، فهذا يلزمه طرفان:
الأول يُراود والثاني إما أن يُذعن أو يرفض!
همّ زليخة بيوسف خرج من دائرة الفكرة لدائرة الفعل
وهذا يثبته سياق الآية،
والآيات التي بعدها وصولا لقولها:
﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾

فماذا عن همّ يوسف؟
لو قال الله: ولقد همّت به وهمّ بها،
وانتهى عند هذا الحد الكلام لتساويا في الفعل،
ولكنه قال:
﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾،
وهنا مربط الفرس!
إنّ في الآية تقديماً وتأخيراً غفل عنه الكثيرون.
وتقدير الكلام :ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه
لهمّ بها!
لولا: حرف امتناع لوجود!
كقولك: لولا غلاء السّعر لاشتريتُ الثوبَ
فإذًا. أنا لم اشترِ

ويوسف لـم يهمّ !

قد يسـأل سائل:

لماذا لم يقل الله: ولقد همّت به ولم يهمّ بها؟

أليس هذا أوضح للمعنى وأيسر؟!

الجواب: لا !

لأنه لو قال: ولقد همت بـه ولـم يهم بهـا،

لنفى الفعل ولم ينـفِ البـاعث عليـه !

فلربمـا لـم يهمّ لأنه ارتبك،

أو لأنه خاف أن يبطش به زوجها، أو تفاجأ!

إن سياق الآية جاء لانصاف يوسف لا لإثارة الشك حوله !

ثانياً:

نرجع لسياق الآية:

قال الله ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾

وانظر لدقة التعبير :

لنصـرف عنــه الســوء،

ولم يقل لنصرفه عن السوء !

فلو أن يوسف عليه السلام همّ فعلا ليواقعها، لكان الله صرفه عن السوء، لأنه في معرض الوقـوع به !

ولكنّه لما قال لنصرف عنـه الســوء،

فإن السوء هو الذي تبع يوسف لا العكس !

ثالثاً:
يختم الله الآية بوصف يوسف عليه السلام قائلاً:
﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾، بفتح اللام.
والفرق بين المُخلَصين والمُخلِصين مهمّ جداً لنفهم ما حدث.
المُخلِص: هو من أخلص عبادته لله فلم يشرك به شيئاً. فهو اسم فاعل، وتحته يندرج عامة المؤمنين الذين غلبت طاعاتهم على معاصيهم ولكن يمكن أن تقع المعصية منهم!
المُخلَص: هو من اختاره الله سبحانه فهو اسم مفعول، وهو بالضرورة معصوم وهذا شأن الأنبياء جميعاً.
وحين وصف الله موسى عليه السلام قال عنه ما قال عن يوسف:
"إنه كان مُخلَصاً وكان رسولاً نبياً"
بفتح اللام، أي مُختارا ومصطفى من قبل الله. أي نبياً ومعصوما،
أي لا يتساوى مع زليخة في فعل واحد!
ونختم بسياق الآيات
﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾
كيف تهمّ به، ويهمّ بها، ويكون ممتنعا؟
لو صحّ رأي أغلب المفسرين بأن الهمُّ حدث فعلاً،
وتوقف بعد رؤية البرهان،
لما كان يوسف عليه السلام مستعصماً!

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

حتى الجنّة التي جعلها الله دار قرار لم تخلُ من
امتحان!
فما بالك بالأرض التي جعلها الله دار عبور؟!
ولكن، انظر لرحمته سبحانه حين حرّم شجرةً واحدة،
أباح شجر الجنّة كلّها!
ولكنها وظيفة الشيطان، أن يزيّن للناس الحرام!
مع أنّ الشجرة لم تكن تختلف عن باقي الأشجار،
ولكنّـه يلعب على وتـر النـاس الحسّـاس،
فأغرى آدم بالخلود!
هذا فعله في الجنّـة،
وقد ضمن الله لآدم أن لا يجوع فيها ولا يعـرى،
ولا يظمأ فيها ولا يضحى،
فما بالك بالدنيا التي جعلها الله دار أسباب وسعي؟!
دار كد وشقـاء؟!
دار مرض وعجز؟!
ولكنّها القصة القديمة ذاتها.
سعة الحلال. وضيق الحرام!

وإبليس يضيّق في عيون النـاس الحـلال، ويوسّع لهم الحرام!

حين حرّم الله الربا، أبـاح الكثير من وسـائل الكسب، ولكن إبليس لا يألو جهداً لإقناعنا أنّه الوسيلـة الأيـسر للرزق، رغم أنه ممحوق البركة مهما كثُر!

حين حرّم الخمر، أبـاح الكثير من المشـروبـات، ولكن دأب إبليس أن يزيّنها للناس!

حين حرّم لحم الخنزير، أباح الكثير من اللحوم، ولكن هذه وظيفة إبليس أن يوهم الناس أن الحرام ألذّ!

حين حرّم الزنا، أباح الزواج، ولكنّ إبليس لا يكلّ يزيّنه في عيون النّاس!

إن كنا قد خرجنا من الجنّة مجبرين، فها نحن في محطة الدنيا، وفيها قطاران: قطار الجنّة، وقطار النار!

فاختاروا قطاركم!

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

أكثر ما يركض الإنسان لأجله: رزقه

ولن ينال من الرزق إلا ما كتب له، مهما ركض!

وأكثر ما يهرب منه: أَجَله

وليس يعيش أكثر مما كُتب له مهما هرب!

قبل أن نحلّ ضيوفاً على الحياة،

كُتب الرزق، وكُتب الأجل!

ولن ينال الضيف من الرزق، إلا ما شاء صاحب الضيافة أن يعطيه!

ولن ينال من العمر، إلاّ ما شاء سيّد الحياة أن يحييه!

فاستريحوا، ثمّ دققوا:

حبّة القمح تُزرع في بلد،

وتصير طحيناً وخبزاً في بلد،

ثم تُحمل إليك رغيفاً؛ لأنّه قبل أن تكون، كُتبَ أنه لك!

هكذا، بكل بساطة يعمل آلاف الناس لايصال لقمة لك!

وتعمل أنت وآلاف النّاس ساعي بريد لإيصال لقمة غيرك؛ لأنها منذ البداية كانت له!

ولو هرب الإنسان من رزقه كما يهرب من أجله.

لَتبعه رزقه كما يتبعه أجله!

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾

وفي لغة العرب كلّ ما دبّ على الأرض فهو دابة،
كما كلّ ما علا وأظلّ فهو سماء،
وأرزاق النّاس مجتمعين ليست إلا صفحة في كتاب
الرزق الكبير الذي خطّه الرازق!
فإذا كنا سبعة مليارات إنسان،
فنحن الأمة الأقل عدداً بين سكّان هذا الكوكب،
مقابل كلّ إنسان يقطن هذه الأرض ما يزيد على ألف
نملة!

﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾

إلاّ للحصر،
كل الذين يسوقون رزقاً لغيرهم ليسوا إلا أسباباً.
يسقونه بالكم والكيف الذي كتبه الرازق
الحقيقي، الملائكة التي تسوق المطر، لا تُنزل قطرة
في حقل لم يأذن سبحانه أن تنزل فيه!
والصدقة التي تضعها في يد فقير، هي رزقه وضعها
الله في جيبك!
كلّ شيء مكتوب بدقة، فاستريحوا!

﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾

هذا هو المعيار عند الله، لا عند النّاس!

نوح كذّبوه،

وإبراهيم رموه في النّار ليحرقوه.

وموسى تـآمروا بـــه ليقتلـوه،

وصالـح أتعبوه،

وشعيب عصوه،

ويحيى قتلـوه،

وزكريا بالمنشار نشـروه،

وعيسى أرادوا أن يصلبوه،

ومحمد ﷺ كلّ هــؤلاء:

بمكـــة كذّبـــوه،

وبالطّائف رجموه،

وعند بيته كمنوا ليقتلــوه.

وفي طريق هجرته لاحقوه،

وفي أحد وبدر قاتلـوه،

وفي الخندق حاصروه،

وبقطعة لحم سمّمـــوه.

فماذا تنتظر أنت من النّاس؟!

الناس إذا تصدّقت قالوا: يُرائي!
وإذا أمسكتَ قالوا: بخيل!
وإذا نصحتَ قالوا: يُعيب!
وإذا سكتَّ قـالوا: جبان!
وإذا تاجرت قالوا: طـالب مـال!
وإذا جلست في بيتك قالوا: عاطل!
إذا انتقدتَ قـالوا: يتبع عيوبنـا!
وإذا صمت قالوا: أمـرنا لا يعنـيه!
هؤلاء هم النّاس،
فيهم الثمين وأكثرهم غث،
فكن أنت!
صحيح أن الذي يراقب الناس يموت هما،
ولكنّ الذي يسمح لهم أن يُسيّروا حياته يموت همًّا
وكمداً وحزناً،
رضاهم غاية لا تُدرك!
وتذكّر دومًا: ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

التّوّابـون: صيغة مبالغـــة.

وصيغ المبالغة أسماء تُشتقّ من الأفعال للدلالة على معنى اسم الفاعل بقصد المبالغة.

وهنا تفيد كثرة القيام بالأمـر،

أي أنّهم يُكثرون من التّوبـــة!

ولمّا كانوا كثيري التّوبة اقتضى بالضرورة أن يكونوا كثيري الخطأ!

وانظر لرحمته في دقة تعبيره سبحانه،

لم يقـل يقبـل التّوّابيـن،

ولـم يقل يغفـر للتّوّابين،

ولم يقل يعفو عن التّوّابين،

وإنّما قـال يحبّ التّوّابين!

أجل يحبّ أولئك الذين يخطئون، ثم يأتونه مستغفرين!

يحبّ أولئك الذين يعصونه نهاراً، ويعــودون إليـه ليلاً!

ولم يخبرنا سبحانه أنّه يحـبّ التّوّابين لنتمـادى في المعصية!

ولكنّه لا يريد للشّيطـان أن يقـف بيننـا وبينـه،

يريد أن يخبرنا أنّ الذنب مهما عظم، فرحمته أعظم!

وأنّ الزّلل مهما تكرّر، فلا يملّ سبحانه من العفو حتى نملّ من العودة إليه!



تختلِطْ بأكملك بالناس
اُتركْ شيئاً منك لنفسك

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾

سَلْ نوحاً عن ألف سنة قضاها في الأرض،
يخبركَ أن العمرَ قصيرٌ مهما طال!
سَلْ سُليمانَ عن الغنى وقد ملكَ الأرضَ من مشرقها
إلى مغربها، بجنِّها وإنسها ودوابها،
يخبركَ أنّ الإنسان فقيرٌ مهما ملكَ!
سَلْ داودَ عن القوة وقد أُلينَ له الحديد،
يخبركَ أنّ الإنسان ضعيفٌ مهما قويَ!
سَلْ فرعونَ عن البحر إذ أطبق عليه،
يخبركَ أن طعم الملح أزال حلاوة المُلك!
سَلْ النمرود عن بعوضةٍ في رأسه،
يخبركَ أن ذُلّ النّعال لم يترك له عزاً!
سَلْ الطغاةَ والعصاةَ على حد سواء عن أبلغ درسٍ
خرجوا به من الحياة،
يخبروكَ جميعًا: لا تركن إلى الدّنيا!

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ... ﴾

العلمُ الصحيحُ يستحيلُ أن
يتعارض مع الدِّين الصحيح!

لقد غيّر العِلمُ رأيَه أكثر من مرّة في قضية واحدة،
ولكنّ هذا الكتاب بين أيدينا على حاله منذ ألفٍ وأربعمئة سنة،
بل إنّ العلم كلّما تقدّم وتطوّر، أكّد صدق هذا الكتاب وعظمته،
رغم أنّه غنيّ عن العلم والعلماء ليكون صادقاً !
مساكينُ أولئك الذين لا يؤمنون إلا بما تراه حواسهم!
مساكينُ أكثر أولئك الذين يؤمنون بغيبيات العلم.
ويكفرون بغيبيات الدِّين!
مساكين يكفرون بالله لأنهم لا يرونه، ويؤمنون بالأشعة فوق البنفسجيّة وهم لا يرونها!
مساكين يكفرون بالملائكة لأنها لا تُرى، ويؤمنون بالأشعة تحت الحمراء وهي أيضاً لا تُرى!
مساكين ينكرون سرعة البُراق، ويؤمنون بسرعة الضوء!
وينسون أنه عندما كان علمهم يقول أنّ الأرض تقف على قرن ثور،
كان قرآننا يقول ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

ينسون أنه عندما كان علمهم يقول أنّ الأرض مسطّحة كان قرآننا يقول ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾!
وعندما كان علمهم مليئاً بالخزعبلات والسّحر، كان قرآننا يحدثنا عن الأجنّة ومواقع النجوم!

الدين الذي جعل العلم فريضة، يستحيل أن يقف بوجه العلم، لأنه وقتذاك سيقف ضد نفسه!
ولكنّه ضد ذاك العلم الذي لا يعترف بسلطان الله على الكون، العلم الأحمق، الذي يرى أن الكون خلق نفسه لمجرد أنه لا يملك تفسيراً آخر غير تفسير العاجزين هذا!!

أسطع حقبة في عُمر العلم هي تلك التي استلم فيها المسلمون ريادته. ذلك أنه اقترن بالايمان،
فالعلم بلا إيمان، لا يلبث أن يصير إلحاداً!
والايمان بلا علم، لا يلبث أن يصير خرافة!

﴿ وَقَالَت امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

هذه المرأة إحدى أعظم المؤمنات في التاريخ،

رغم أنها كانت زوجة أحد أشهر الكفّار في التاريخ!

وهي إحدى أربع نساء بلغنَ الكمال!

فقد قال سيد الناس ﷺ:

" كمُلَ من الرّجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع، مريم ابنة عمران، وآسيا زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد"

الطّريف في الآية، أنّ فيها إحدى أشهر فِراستين في التاريخ!

الطّريف أكثر أن الفَراستيْن كانتا لنساء!

والطّريف الأكثر أن الفراستيْن كانتا في شخصٍ واحدٍ هو موسى عليه السّلام:

أما الفراسة الأولى فقول آسيا ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ . .

فكان موسى عليه السلام ابنها، ونبيّها، الذي آمنت به وأوصلها إلى الجنة، وليس بعد الجنّة منفعة!

أما الفراسة الثانية فكانت لابنة الرجل الصالح، حين قالت له ابنته بعد أن سقى لها ولأختها ماشيتهم

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

فكان موسى؛ نعم القوي، ونعم الأمين!

قدر الله نافذ لا محالة،

انظروا إلى فرعون،

ذبح آلاف الأطفال قبل ميلاد موسى؛ لأن المُعبّرين أخبروه أن تأويل رؤياه ولدٌ لبني إسرائيل يكون زوال ملكه على يديه!

ولكنّه في المقابل رقّق قلب آسيا على موسى عليه السلام،

فتربى في بيت فرعون!

ذبح آلاف الأطفال خوفاً من مجيء الطفل صاحب الرؤيا،

ولمّا جاء صاحب الرؤيا ربّاه في بيته!

ما كتبه الله واقع لا محالة،

وما قدّره كائن لا شك،

ولكنّه سبحانه جعل هذه الدنيا دار أسباب،

نأخذ بالأسباب لأنها واقعة في قدره،

ولكنّنا لا نجعل يقيننا على السّبب بل على من سبّبها!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

استيقظ بنو إسرائيل يوماً على جثّة مُلقاة أمام أحد البيوت، فتنازعوا بينهم أمره،
وتراشقوا التُّهم هذا يلقيها على ذاك،
وذاك يلقيها على ذلك،
حتّى قرّروا أخيراً أن يحتكموا إلى موسى عليه السّلام،
فأمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوا الميت بلسانها،
فيمتثل حياً، ويُخبر عن قاتله ويموت مجدداً!

تأمّل نصّ الآيـــة :

بقرةً، هكذا نكرة،
أي أن أيّة بقرة تفي بالغرض،
ولكنّ اليهود ككلّ زمان ومكان، يعبدون المال،
فجاؤوا إلى موسى عليه السّلام يسألونه أن يُبين لهم بعض صفاتها،
فقـــال لهـم: لا هي كبيـــرة، ولا هي صغيـــرة،
وترك لهم الباب واسعاً، ولكنّه أضيق قليلا مما كان،
ولكنهـم أبوا إلا أن يضيّقـــوه على أنفسهـــم أكثر،
فسألوه عن لونها،
فأخبرهم أنها صفراء فاقع لونها،
فضاق الباب أكثر،
بقرة صفراء: لا كبيرة ولا صغيرة!

فأرادوا أن يضيّقوه أكثر،
ورجعوا يسألون..
فأخبرهم أنها بقرة معززة مكرمة عند أصحابها، لا تستعمل في الحراثة ولا السقاية!
فبحثوا عن بقرة صفراء لا صغيرة ولا كبيرة معززة مكرمة،
فما وجدوها إلا عند من أبى أن يبيعها إلا بملء جلدها ذهباً لمّا علم حاجتهم إليها،
فدفعوا الذهب وفارقوه كمن تفارق روحه جسده،
وذبحوها وضربوا الميت بلسانها،
فقام من فوره وأخبر أن قاتله هو ابن أخيه ووارثه الوحيد الذي استعجل موته لينعم بالثروة من بعده!

الدّرس الأوّل:
إن الله عندما يسكت عن أشياء فإنه يسكت عنها رحمة بالناس لا عن نسيان!
ما أراد الله أن يُؤتى به على نحو محدد فصّل فيه،
وما شاء أن يتركه عاماً قاله مجملاً،
فلا توسّعوا ضيِّقاً،
ولا تُضيّقوا واسعاً!

الدرس الثاني :

هؤلاء هم اليهود أكثر الناس أنبياءً وأقلهم إيماناً .

يعبر بهم موسى عليه السلام البحر ، وقبل أن تجفّ أقدامهم يقولون له لما رأوا قومًا يعبدون أصنامهم:

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾

يرفع الله لهم الجبل ظلة فيجحدون،

يمطر عليهم ذهبًا فيكفرون،

يرسل لهم طالوت، فيتخلفون عنه إلا قليلاً .

يبعث لهم الأنبياء تترا: ففريقاً يقتلون، وفريقا يكذّبون!

الدرس الثالث :

ما كان لك سيأتيك رغم ضعفك ،

وما لم يكن لك لن تناله بقوتك !

فكّرَ، وخطط، وقتلَ لأجل المال، ثم حُرم منه!

وذهب المال لمن لم يكن ينتظره لأنّ الله من البدء قد كتبه له !

الدرس الرابع :

نجمع المال من حلال وحرام، ثم نتركه خلفنا للورثة يتمتعون به ونحاسب عليه وحدنا !

المال عجلة الحياة، ولكنّه ليس الحياة كلها!

وإنّ الله قد قسم كل شيء بالعدل بين الناس،
وقليـــلٌ من النـــاس من أوتي كـل شيء!
تجد غنياً، حرمه المرض أنواع الطعام على كثرة ماله،
وتجد فقيراً يشتهي ولا يجـد،
الأول أعطي المال، والثاني أعطي الصحة.
تجد شخصاً حُرم الأولاد وأعطي العلـم،
وآخـر أعطي الأولاد وحُـرم برّهـم !

هكذا هي الدنيا لا تكتمل!

ولكننا نحن البشر بما نفقد لا بمـا نجد،
يظن أحدنا أن أهـم مـا في الدنيـا هـو ما حُرم منـه.
وننسى أنها ليست إلا دار زراعة وأن الله لن يسألنا عما
حرمنا،
بل سيسألنا ماذا فعلنا بما أعطانا،
ســر السعـــادة أن نـرضى،
الخوف من الحاجة حاجـة أخرى،
لو نظرنا لما في أيدينا، لما أسعفنا الوقت أن نتأمل
مما حرمنا منه!
ولكن نحن هكذا ننسى ما في أيدينا، وننظر لما هو في
أيدي الناس!
البيوت أسرار
فمـا أدراك من لــه مـال طـائل كيـف يعيـش؟
ومـا أدراك أن من لــه زوجة جميلــة أنّه سعيد؟
السعادة ليست بما نملك بل بفن إدارته والتمتع فيه!

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾

الشّجـاعـة ليست أن لا تخـافـ
بل أن تعرف كيف تكتم مخاوفك !

علينا أن لا ننسى أن الناس مهما بلغوا من رفعة فإنهم نهاية المطاف بشر

هذا موسى عليه السلام، يخـافـ!

وهذا نوح عليه السلام يتقطع قلبه على ابنه الكافر ويقول: إنه من أهلي !

وهذا إبراهيم عليه السلام يخبر ابنه برؤياه: يا بُني !

وحين جاءته الملائكة بهيئة بشر، ووجد أيديهم لا تمتد إلى طعامه، خاف، فطمأنـــوه!

وحين أخبروه أنهم في طريقهم لخسف قرى الظالمين تذكّر أقرباءه ورحمه فقال: إنّ فيها لوطاً!

وهذا يعقوب عليه السلام لا يطيق فراق ابنه الأثير يوسف ويقول: "إنّي ليَحزنني أن تذهبوا به"

وهذا محمد ﷺ يبكي يوم موت ابنه ويقول: إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون ولكنا لا نقول إلا ما يرضي الله

النّاس مهما بلغوا من الرّفعة وفاقوا البشر العاديين فلأنهم صبروا وجاهدوا أنفسهم

ولكن هذا لا يعني أنهم ليسوا بشراً مثلنا

يحبون ويكرهون ويغضبون ويرضون

ولهم شهــوات وعندهــم أحــلام

المتسوّل يفرح بالكلمة الحلوة كما يفرح بالدرهم لأنه

إنسان والعاملة المنزلية تفرح بالمعاملة الحلوة لأنها

إنسان ولأن الطيبة في الغربة وطن!

وعامل النظافة يفرح بالابتسامة لأنه إنسان ولأن

ابتسامة في وجه إنسان قد تصنع يومًا جميلاً رغم كل

شيء، الناس: كريمهم ووضيعهم.

غنيّهم وفقيرهم،

ذكرهم وأنثاهم،

مهمـا اختلفت أدوارهـم في الحيـاة هـم بشـر!

الصالحون ليسوا مجرد مصاحف تمشي على الأرض،

والعمـــال في المصـــانع ليسوا آلات من لحـم ودم.

نحن أيها الناس ناس!

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

هذا هو شأن المجتمعات الفاسدة منذ آلاف السنين،
إذا لم تجد للمصلحين خطيئة تُعيّرهم بها،
عيّرتهم بأجمل ما فيهم!
وجريمة آل لوط أنهم أناس يتطهرون!

بعض الأشياء لا تتغيّر على هذا الكوكب،

يختنقُ الفاسدون من الصالحين لأنهم يذكّرونهم
بنقصهم. لهذا تريد الزانية لو كل النساء زنين فالعفة
صفعة شديدة على وجهها!
ويريد السارق لو كل الرجال سرقوا، فالأمانة سوط
حار على ظهره!
ويريد المرتشي لو كل الموظفين ارتشوا، فالحلال هو
الذي يجعل اللقمة مرة في فمه!
ويريد العاق لو كل الأبناء عقوا، فالبرّ درس قاس يتلقاه!
لأنهم عاجزون عن الارتفاع، يريدون للآخرين أن
ينحدروا!
إنهم يتهامسون بالسوء عنكم، وفي قرارة أنفسهم
يتمنون لو أنهم مثلكم!
لا تصدقوهم حين يقولون عن المحجبة مُعقدة،
وعن الملتزم متزمت،

وعن الصادق جاهل بالأتكيت،

وعن العفيف جبان،

وعن الأمين لا يعـــرف من أن تُـؤكـل الكتـف،

في قرارة أنفسهم يحترمونكم مهما أظهروا العكس،

فلا تتغيّروا!

﴿أنا أكثرُ منكَ مالاً﴾

إن الله يعطي الدنيا لمن أحبّ من عباده ولمن كره،
ولكنّه لا يعطي الدين إلا لمن يحب،
أعطى الدنيا كلها لسليمان عليه السلام وذي القرنين،
وأعطاها لقارون والنمرود،
ولو كانت معياراً للتمايز ما ساوى فيها نبياً وطاغية!
أفقر النّاس هم أولئك الذين لا يملكون إلا المال!
أولئك يظنون أن كل شيء قابل للشراء بما في ذلك
الجنّة. ويعتقدون أنهم أغنى آخرة لأنهم أغنى دنيا!
المال عجلة الحياة وليس الحياة،
وسيلة وليس غاية.
إذا وُضع تحت القدمين رفع،
وإذا وُضع فوق الرأس خفض،
وامتلاك المال لا يقدح في الدين؛
على العكس، نِعْمَ المال الحلال في يد العبد الصالح.
المهم أن يكون المال في يدك لا في قلبك!
المال يجعل الحياة أكثر رفاهية.
ولكن أجمل ما في الحياة هي أشياء لا تُشترى!
المال يشتري دواءً ولا يشتري صحة.
يشتري سريراً ولا يشتري نوماً.

يشتري ديوان غــزل ولا يشتري حُبّاً،
يشتري غانية ولا يشتري حبيبة،
يشتري كتاب نكات ولا يشتري ضحكة من القلب،
يشتري روضة أطفال ولا يشتري طفلاً،
يشتري مكتبـة ولا يشتــري ثقافــة،
يشتري سـيارة ولا يشتــري أقـداماً،
يشتري نظــارة ولا يشتـــري أعيناً،
يشتري متزلفين ولا يشتــري أصدقاءً،
الفقير والغنيّ، لا يأكل أحدهما أكثر من سعة بطنه،
ولا يلبس أكثر من ثوب واحد وإن اختلفت المــاركة،
ولا ينتعل أكثر من حذاء واحد وإن اختلفت النوعية،
اجمعوا المال ليخدمكم لا لتخدموه!
اجعلوه عبداً لا سيداً،
تابعاً لا معبوداً،
ثمّ سيّروا حياتكم به، ولا تجعلوه حياتكم!
وتذكروا دوماً لديكم الكثير مما لا يُشترى!

﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾

كلبٌ تخلّد في القرآن بسبب الرفقة الصالحة !
فاختر أصدقاءك بعناية كما تختـار ملابسك،
الصاحب ساحب!
توشك أن تُغيّر إنساناً للأفضل فيغيّرك للأسوأ،
وإن لم يُغيّرك،
يكفيكَ من شرّه أن تعيّر به!
فالمَـرءُ عنـد النـاس على دين خليلـه،
كانت العرب تبحثُ عن الرفيق قبل الطريق!
وتبحثُ عن الجـار قبـل الـدار!
الصديق الصالح أحد متع الحياة،
بئر عميق تـودع فيـه سـرك،
وعقل ناضج تشركه في أمرك،
وكتف حنون تستند عليه من همّـك،
ويد حانية تزيل عن كاهلك ما ألمّك،
كلب تخلّد لأنه مشى في رفقة صالحة،
وحوت تخلّد بحمل يونس عليه السلام،
ونملة تخلدت بابتسامة سليمان عليه السلام،
وهدهد تخلّد لأنه كان ساعي بريد،
ونحن أولى بهذا!

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ ﴾

المعروف كلمة فضفاضة يدخل فيها كلُّ شيء حسن !
ابتسامتك في وجهها. معروف
وكلمة حلوة، معروف
وضمة إلى صدرك، معروف
وهدية بمناسبة أو دونها، معروف
أن تسمع شكواها، معروف
وأن تهتم لصحتها، معروف
وأن لا تمنعها عن أهلها، معروف
أن تحترم رأيها. معروف
وأن تحترم هواياتها. معروف
وأن تعينها في شؤون بيتها وأولادها، معروف
وأن تعينها في شؤون دينها، معروف
أن تحتمل عثراتها، معروف
وأن تعطف عليها. معروف
أن تراعيها في مرضها، معروف
وأن تحتمل تقلب مزاجها، معروف
وانظر لدقة التعبير: "وعاشروهن بالمعروف"
ولم يقل بالعُرف،
ذاك أن المجتمعات في الغالب لها معايير عوجاء،

تقتل حنان الرجل باسم قــوة الشخصية،

تجعله جافاً باسم المحافظة على الرجولة،

تجعله ظلفاً وقاسياً باسم فلان يحكم بيته.

بعض تصرفاتنا ليست إلا أمراضاً نفسية تعتّقت ردحاً من الزمن فصارت عادات!

الرجولة ليست أن تفعل ما يفعله الناس وإنمــا أن تفعـل الصــواب!

لا يكن أحدكم إمّعة إذا صلح الناس صلح، وإذا فسد الناس فسد!

كان سيد الرجال ﷺ في خدمة أهله،

وكــان أكثر النــاس تبسمــا في بيته،

وكان لا يتحرج أن يذكر أنه يحب امرأته وقد قال عن خديجة تلك امرأة رُزقت حبّها

وكان من آخر وصاياه: استوصوا بالنساء خيراً!

﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾

خَلَقَ اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام من طين،
وخَلَقَ حوّاءَ من ضلعِ آدم،
فإذا كانتْ حوّاءُ جزءاً من آدم، فإن آدمَ هو حـوّاءُ كلّها!
مهما أحبّ الرّجل المرأة فإنه يجعلها جزءا من حياته
كما كانتْ منذ البداية جزءا من كيانه،
أما المرأة، إذا أحبّت الرّجل فإنها تجعله حياتها كلها
كما كان منذ البداية كيانها كلّه!
النّساءُ أصدقُ في الحبّ من الرّجال،
وهذا ليس ذمّا في الرجال،
وليس مدحا في النساء !
إنها الفطرة التي فطر الله عليها النّاس لتستمر الخليقةَ!
إن أصل الخَلق لا فكاك منه في الطِباع!
فقد خلق الله آدم من تراب،
والتراب هو الرحم الذي تولد منه الأشجار والنباتات،
لهذا يجد الرجل قيمته في العمل والإنتاج !
ولكنّه سبحانه خلق حواء من ضلع في آدم ناحية القلب،
لهذا فإن علاقة المرأة بالإنتاج علاقة بعيدة نوعا مـا،
وهي عندما تُنتج فإنها لا تحقق ذاتها وإنما تحقق بعضا من ذاتها،
وإنما تسعد بما تُنتج لأنها تُشبع بعض التراب التي هي جزء الجزء منه.

ولكنها لا تجد نفسها إلا حين تَحب،
فقد قُدّتْ من قطعة قــرب القلب!
المرأة تجد نفســها زوجة حنــون،
وأمّا رؤوم.
لهذا نجد اللهفة للأمومة عند النساء أشد من اللهفة
للأبوة عند الرّجال!
لأن الأبوة حلقة من حلقات الانتاج الكثيرة في حياة الرجل،
أما الأمومة فهي أرقى وظائف الحب،
وبدونها تشعر المرأة بنقص عاطفي
لأن هذا يُحدث خللاً في وظيفتها الكبرى التي خُلقتْ لها!
لهذا لا مانع عند الرّجل أن تساعده المرأة في أعباء
الحياة الماديّة.
ما دامتّ لا تأخذ وظيفته!
ولكنّه يتحرج أن يكون عالة على امرأة،
ذاك أنه كائن ترابيّ!
أما المرأة فلا تتحرج أن تكون مسؤولة من الرجل.
يقدم لها احتياجاتها الماديّة.
إنها لا تشعر بالعجز والنقص أبداً،
ذاك أنها كائن قلبيّ!
على المرأة أن تُقدّر ما ينتجه الرجل مهما كان ضئيلا.
لأنها بهذا تساعده على تحقيق ترابيته!
وعلى الرجل أن يُرخي للمرأة عنان قلبها ويدللها لتُطلق
أنوثتها. لأنه بهذا يساعدها على تحقيق قلبيّتها!

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

صعد إلى السماء السابعة ثم عاد إلى الأرض،

يخصفُ نعله، ويحلبُ شاته،

ويأكل مع المساكين،

هكذا هم الكبار كلمـــا ارتفعوا تواضعـوا !

يخرج مع أصحابه فيقرروا أن يذبحوا شاة،

يقول الأول: أنا أذبحهـا.

يقول الثاني: أنا أسلخها.

يقول الثالث: أنا أقطّعها.

يقول هو: وأنا أجمع الحطب.!

هكذا هم الكبار يرفضون أن يتميّزوا !

بتصرّفه مال كثير،

يحثوه على النّاس حثواً وينسى نفسه،

فيموت ودرعه مرهونة عند يهـــوديّ،

هكذا هم الكبار يأبون إلا أن يتعفّفوا !

يؤمُّ النّاس، ويسجد فيحبو الحسنُ بن علي بن أبي طالب، ويصعد على ظهره،

فلا يرفع رأسه حتى ينزل حفيده،

ويصلي مرة أخرى، فيسمع بكاء طفل عند صفّ النساء،

فيخفّف صلاته ويختصر قراءته،
كي لا يشغل قلب أم على طفلهـــا،
هكذا هم الكبار وُجدوا ليَرحموا!
ينهى أصحابه عن الوقوف له تعظيماً،
ويدخل عليهم مرّة، وبدون شعور منهم يقفون،
فيمتعض، ويرى حسّان انزعاجه بادٍ على وجهه،
فينشده :
وقوفـي للعزيـــز عليّ فـرضٌ
وترك الفرضِ ما هو مستقيمُ

عجبتُ لمن له عقلٌ وفهمٌ
يرى هذا الجَمال ولا يقومُ

فيبتسمُ ويرضى
هكذا هم الكبار إذا اعتُذِر إليهم قبلوا!

لا بأس أن يعمل
المـــرءُ لدنيـــاه
ولكـــن دون أن
ينسى آخــرتــه
ولا بأس أن يجعل
بيتـــه جميـــلاً
ولكـــن دون أن
ينسى قبـــره!

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يُسكّنُ قلـوب محبّيـه،
ويُهدّىء أشواقهم للقياه،
يطيّب خـواطـرهـم،
يُسلّيهم بما يخاف منه الناس عادة!
فكأنه يقول لأحبابه: لا يفصلكم عني إلا الموت!
هذا لا يعني أن الإنسان لن يكون مؤمنا إلا إذا أحبّ أن يموت!

حب الحياة غريزة بشريّة،

والمؤمن والكافر في هذا سواء..
وقد سألت عائشة رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى:
" كرهوا لقاء الله فكره الله لقاءهم "
فقالت له وأيُّنا يحب الموت؟
فقال لها: ليس هذا المقصود يا عائشة!
وأخبرها أن الإنسان يرى مقعده من الجنة أو النار قبل خروج الروح. وأن الكافر إذا رأى مقعده كره لقاء الله،
فكان سبحانه أشد كرها للقائه!

﴿ فكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾

أعظـم شـاهد،

في أعظم قضية،

في أعظم محكمة،

عند أعظم قاض،

إنها قضية الوجود الكُبرى، إفراد الله تعالى بالربوبية والألوهيّة!

فلأجلها خلق السماوات والأرض،

وأرسل الرُسـل،

وأنـزل الكتُب،

ونصب الموازين،

وأعدّ الحسـاب،

هي علة وجود الجن والإنس،

وإن شئت فاقرأ قوله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

ولكنه من رحمته جعل الحياة في طاعته عبادة،

فتحصيل الرزق بالحلال عبادة،

واللقمة يرفعها الرجل إلى فم امرأته صدقة،

والإحسان إلى الجار عبـادة،

وإماطة الأذى من الطريق صدقة،
وابتسامة في وجه إنسان صدقة،
بل وفي بضع أحدكم صدقـــة،
فاستغربوا وسألوه ﷺ: أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟
فقال لهم ﷺ: أرأيتم إن وضعها في غير مكانها أفلا يكون عليه وزر؟
فكذلك إن وضعها في موضعها فله أجر!

أعظم شاهد:

يقول ﷺ لابن مسعود: اقرأ عليّ!
فيقول له: يا رسول الله، أأقرأه عليك وعليك أُنزل؟
فقال ﷺ: إني أحـــب أن أسمعـــه من غيـري!
فقرأ ابن مسعود في سورة النساء
فلما وصل إلى هذه الآية فاضت عيناه بالدمـــوع،
وقال ﷺ لابن مسعـــود: حسبـــك! أي كفـــى!
سيشهد كل رسول في المحكمة الكبرى أنه قد بلغ،
وستأتي الشهادة الكبرى من الكبير أخلاقاً ومقاماً،
سيقول: اللهم قد بلّغوا،
ما أعظمه!
هذا خطاب تشريف، فلا يَرى فيه لدماثة أخلاقه ﷺ
إلا خطاب تكليف، **فيستشعر عظم الأمر ويبكي!**

أعظم محكمة:

هناك تنطق الجُلود بما أحسّتْ،

وتتكلـــم الأبصـــار بمـــا رأتْ،

وتشهد الأرجـــل بمـــا مشـــت،

وتعترف الأيدي بمـــــا بطشتْ،

هناك تُؤدى الحقوق،

لا يوجد محام يقلب الحـــق باطـــلاً،

ولا قضية تُغلقُ لعدم كفاية الأدلـــــة.

هناك كل يأخذ ما له ويدفع ما عليه،

حيث لا درهم ولا دينار،

ولن تنفضَّ المحكمة حتى تقتص الشاة الملحاء من الشاة القرناء !

حتى الشاة التي استقوت بقرنيها على شاة ليس لها قرون ستقف في القصاص: نطحة بنطحة !

أعظم قاضٍ:

جبّار السماوات والأرض ينبري للحساب،

وما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان.

سيقول له ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

فلنكتب ما يسرُّنا غدًا أن نقرأه بين يديه !

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

بالمــاء انتقم لنــوح!

وبالنار أثبتَ صِدق إبراهيم!

وبالحــوت حفــظ يونس!

وبالضفادع والقمل والدم دافع عن موسى!

وبالعنكبوت خبّأ محمداً ﷺ!

بالبحر أغــرق فرعــون!

وبالبعوضة أذلّ النمــرود!

وبالجرذان هدّ سدّ مأرب!

وبالأَرَضَة حشرة لا تكاد تُرى بالعين المجرّدة نقضَ

وثيقة قريش!

على أبواب مكّة عصى فيل الحبشة!

وعندما لم يكن لأهل البيت جيش.

كان لرب البيت جيشه!

خلّوا السبيل بين أبرهة والبيت والعتيق،

ووقف عبد المطلب بعيداً، سيفُه في غمده، وأشهَرَ

الدعاء!

"اللهم إنّ العبد يمنعُ رحله فامنعِ رِحالك!

لا يغلبنَّ صليبهم ومحالهم عدْوا محالك!

إن كنتَ تاركهم وقبلتنا، فأمر مـا بدا لك

فاستجاب وأرسل أبابيله

سبحانه يُجنّد الماء والنار والبعوض والجراد والقمل
والضفادع والحيتان والأرضات والجرذان
والطيور الأبـابيل
هذا الكون جيشـه
وكل من فيه جنده
يقرع طبول الحرب على أعدائه بأضعف مخلوقاته
وأمره في الجبابرة كُن فيكون !

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

امرأتان من مصر تربى في قصر كل منها نبي:

الأولى زليخة امرأة العزيز؛ تربى في قصرها يوسف عليه السلام.

والثانية آسيا امرأة فرعون؛ تربى في قصرها موسى عليه السلام.

اجتمعتا في الجاه والسلطان والعز،

وتفرقتا في التقوى والإيمان والبر،

كانت زليخة زوجة عزيز مصر؛ الرجل الثاني في الدولة حسب النظام السياسي في دولة الفراعنة، وكانت آسيا امرأة الفرعون: الرجل الأول في الدولة حسب النظام السياسي لمصر القديمة، والإله حسب النظام الديني!

أي أن آسيا كانت أعظم جاهاً وسلطاناً من زليخة وإن عاشتا في زمنين مختلفين

فيوسف كان قبل موسى بمئات السنين، وكذلك كانت زليخة قبل آسيا!

كلاهما ربّت نبياً في قصرها منذ نعومة أظافره حتى استوى رجلاً سوياً!

زليخة ربت يوسف صبيا قبل ان يبلغ العاشرة، بعد أن اشتراه العزيز، وأهداها إياه

وآسيا ربت موسى منذ اليوم الأول لولادته، بعد أن أوحى الله إلى أمّه أن ترضعه، وتضعه في صندوق وتلقيه في النيل!

زليخة غلبت شهوتها على أمومتها، فأرادت يوسف كما تريد المرأة زوجها،

وآسيا غلبت أمومتها على ما عداه. وأرادت موسى كما تريد الأمهات الأولاد،

تحيطه بالرعاية والاهتمام وتحميه بأجفان العيون وتضمه بحنان القلب!

زليخة ألقت يوسف في السجن.

وآسيا منعت عن موسى الذبح!

زليخة أرادت الدنيا،

وآسيا أرادت الآخرة!

زليخة لم تؤمن بيوسف إلا بعد أن بلغت أرذل العمر. فصارت عجوزا ذليلة بعد أن فقدت زوجها ثم فقدت عزها ومالها ثم بصرها!

آسيا آمنت بموسى منذ اليوم الأول الذي دعاها فيه إلى الله!

زليخة كانت شهوتها هي التي فرّقت بينها وبين زوجها،

وآسيا كان إيمانها هو الذي فرّق بينها وبين زوجها!

زليخة مات زوجها وهو عليها غضبان،
وآسيا ماتت وربها عليها راضٍ!

كانت تؤمن أن العز الحقيقي هو عز الآخرة لهذا كانت
تدعو ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾
فلما عرف فرعون بإيمانها، صَلَبها!
وكانت وهي تودع الحياة وروحها تفارق جسده،ا تبتسم!
لأنها كانت ترى بيتها في الجنة!
المال لا يُفسد الإنسان،
والفقر لا يصلحه !
وليس مهمًا مع من يعيش الإنسان، بل كيف؟!
فالمرأة التي كان زوجها يقول:
﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾
كانت تسجد صباح مساء وتقول: سبحان ربي الأعلى!
وليس مهمًا أين يعيش الإنسان، بل كيف؟!
كانت آسيا تعيش في قصر وقلبها معلّق ببيت في الجنة!

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

إن الله قَسَم الجمال بين الناس، كما قسم الأرزاق!
فمـن أغنـاه، فعـن فضـل منـه!
ومن أفقره، فليس عن فقر منه سبحانه!
ولكن كلّ شيء عنده بقدر!
وكذلك الجمال،
فمن خَلَقه جميلاً، فإنما هو نقطة في بحر إبداعاته سبحانه، ومن خلقَـه أقلّ جمـالاً، فليس عن عجـز منـه، ولكنّ كلّ شيء عنده بقَدَر!
فإذا غرّك جمالك، فتذكّر أنّ شخصاً عاش يوماً على هذه الأرض كان جميلاً حدّ الخيال، جميلاً إلى درجة أن تقطع النسوة أيديهنّ وهُنّ ينظرن إليه!
لو أنّ زليخة وحدها قطعت يدها، لكانت امرأة فُتنت برجل!

ولطالما كان الجَمال نسبياً!

فما تجده جميلاً، قد يراك غيره عادياً،
أمّا أن تقطع كل النساء الحاضرات أيديهنّ وهنّ لا يشعرن، فهذا يعني أن جمال يوسف كان متفقاً عليه!
كان بهيّاً حدّ الفتنة،
جميلاً حدّ الذهول،
أنيقاً حتى يُشكّ في آدميته ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾

ثم ماذا فعل هذا الجميل البهيّ؟
كان بهياً بأخلاقه قبل وجهه،
جميلاً بقلبه قبل مظهره،
وهو في السجن. يطلبون تأويل رؤياهم لأنه من المحسنين!
وهو عزيز مصر. يطلبون صدقة لأنه من المحسنين!
لم تغيّرة الأماكن، ولم تبدّله المناصب!
يطوف على الحقول ويشرف على الزراعة،
يبني أهراءات القمح، ليحفظ محاصيل الناس،
ويحمل على عاتقه إطعام أمة في سبع عِجاف!
وهذا هو الجمال الحقيقي!
ومن رحمته سبحانه عندما فاوَتَ في الجَمال بين النّاس، فاوَتَ في الأذواق.
فكل جمالٍ مهما قلّ هناك من يستحسنه!
ثمة رجل يُرى امرأة ما، أجمل نساء الأرض وهي في نظر غيره عادية!
وثمة رجل مكتمل الرجولة والجمال، في عين امرأة ما وهو في نظر غيرها عاديّ!
وثمة شيء اسمه الألفة،
سبحانه لولا اختلاف الأذواق لفسدت السّلع!

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

النّاس توجعهم الكلمة القاسية
كما توجعهم ضربة السّيف!

وتُسعدهم الكلمة الحلوة كما تُسعدهم الهديّة!

كان ينزل عليه الوحي،

وجاءه جبريل وأخذه من مكة إلى القدس ليصلي

بالأنبياء إماماً ويستلم قيادة البشرية،

ثم صعد إلى السماء سماءً سماءً،

بلغ سدرة المنتهى،

ووطأ مكاناً لم يطأه نبي مرسل ولا ملك مُقرّب من قبل!

أعطاه الله نهر الكوثر،

وقرن اسمه باسمه،

وكانت تؤذيه الكلمة القبيحة،

ويضيق صدره بها،

فمن باب أولى أن يتأذّى من هم دونه وتضيق صدورهم،

كل كلام له شِقين:

١. مضمون

٢. أسلوب

فإن كان المضمون جميلاً، فلا تفسده بأسلوب قبيح!

وتذكّر، أنّ الذي قال أنا ربكم الأعلى،

أرسل الله نبياً ليقول له قولاً ليناً!

وإن كان المضمون قبيحًا، فلا يجتمع عليك قبيحان:
قُبح المضمون وقُبح الأسلـــوب!

تذوّق كلامك قبل أن تنطقه،

فإن وجدته حلواً في فمك، سيكون هكذا حين يقع في آذان الناس!

وإن كان مُرّاً، سيكون هكذا في آذان الناس،
الحقيقة أغنى ما تكون عن اللفــظ البذيء،
فلا يمكن تحقيق الغايات الجميلة بأساليب قبيحة،
يجب أن تليق الأساليب بالغايات،
لا يوجد حق أكبر من دعـوة نبيٍّ،
ومع ذلك قال له ربه :

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

الكفرُ الصّريح أفضل من الإيمان الكاذب، وفي كلّ شر!

ولو لم يكن النفاق أكبر إثمًا من الكفر الصريح، ما جعل الله المنافقين في أكثر مراتب النار عذابا!

وهذا من البداهة بمكان ليُفهم من سياق الآيات،

لم يعرف العربُ النفاق في مكة، أو بتعبير أدق لم يمارسوه،

وهذا عائد برأيي لسببين:

الأول: أن قريشا كانت خالصة في عروبتها، أفصح العرب لسانا، وأحسنهم مجازا، وأرفعهم نسبا

والعنصر العربيّ الخالص عرف رزايا كثيرة ولكنه لم يعرف الجُبن!

وقد ظهر النفاق في المدينة لتعدّد الأعراق والأديان فيها، واختلاف الولاءات السياسية.

فقد كانت المدينة مجتمعا مفتوحا للتجاذبات وللصراعات على أشدها لاثبات الذات، وتأكيدها.

فكان الأوس والخزرج واليهود والنصرانية على نطاق ضيّق، مما حدا بتلك القوى أن تمارس السياسة ردحا من الزمن، وما السياسة إلا فن من فنون النفاق!

هذا الأمر لم تعرفه قريش، فقد نعمت باستقرار سياسي وتوزيع مناصب القبيلة على مستحقيها فانصهرت القبيلة في بوتقة واحدة ولم تتنافر!

والسبب الثاني:

برأيي أنه لا يقل أهميّة عن الأول،

وهو أن الإسلام في مكة كان ضعيفاً، ومضطهداً، وكانت السلطة السياسية والغلبة الماديّة لدين قريش.

بينما في المدينة انقلبت الأدوار، فقد صار الإسلام هو السلطة والقوى التي لم تنخرط فيه هذه الأقليّة!

لهذا كانت أمام أحد أمرين:

إمّا أن تُظهر كفرها وتسبح ضد تيار المجتمع،

وإمّا أن تُمثّل الإيمان تمثيلاً وهي في الحقيقة تُبطن الكفر،

وهذا الذي كان!

أو أن تقف ضد السلطة فتخسر ما تحاول بنفاقها أن تُحافظ عليه،

فالإنسان لا يظهر عكس ما يُبطن

إلا في حالة الخوف،

وإلاّ فالأصل أن تُعبّر المواقف عن المعتقدات!

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾

من خلال ما قرأتُ وسمعتُ واستنتجتُ أرى أن تاريخ البشريَة يتلخَص في عشر مراحل :

١- مرحلة العدم: وتتساوى فيها البشريّة مع كلّ ما في الكون، حيث كان الله ولا شيء سواه !

٢- مرحلة خلق آدم عليه السلام: حيث أمرَ الله سبحانه الطين الميت أن يكون بشراً سوياً فكان!

٣- مرحلة خلق حواء: حيث خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم عليه السلام لتسكن إليه، ويسكن إليها، هذه الطريقة المليئة بالحكمة والتي أنيط بها استمرار البشرية!

٤- مرحلة الذرّ: وهي المرحلة التي تحدث عنها الآية، حيث مسح الله على ظهر آدم عليه السلام، فأخرج منه كل البشر الكائنين إلى يوم القيامة على هيئة النمل الصغير . وأشهدهم على وحدانيته وربوبيته فشهدوا، ثم أعادهم إلى صلبه ليولد بعد ذلك كل إنسان على ميقات لا يُخلفه !

٥- مرحلة الحياة في الجنّة: حيث منّ الله على الزوجين بالحياة في الجنّة، وأباح لهما شجرها كلّه إلا واحدة، فوسوس لهما الشيطان وزيّن، فأكلا منها، وكانت تلك الخطيئة سبباً في النزول إلى الأرض.

٦- مرحلة الاستخلاف في الأرض: وتمتد من نزول آدم وحواء إلى الأرض إلى نفخة إسرافيل الأولى في الصور.

٧- مرحلة البرزخ: وهي حياة الأرواح التي ماتت أجسادها، حيث تكون في نعيم أو عذاب، وتبدأ من لحظة موت كل إنسان وتنتهي بالبشر جميعاً لحظة نفخ إسرافيل نفخته الثانية في الصور، وقيام الناس للحساب.

٨- مرحلة البرزخ الجماعيّ: وهي المرحلة الممتدة بين نفختي إسرافيل في الصور، حيث يترك الله الناس موتى ما شاء له أن يتركهم.

٩- مرحلة الحساب: ويتلخّص بيوم القيامة حيث تُنصب الموازين، وتُقام المحكمة، ويُعرض الناس للحساب عند قاضي السماوات والأرض.

١٠- مرحلة الحياة الأبديّة، إما إلى جنّة وإما إلى نار !
فما الدروس المستفادة من الآية ؟

الدّرس الأوّل :

قضيّة التوحيد هي قضيّة الكون الكبرى، بل قضيته الوحيدة، لأجلها خلق الله النـاس، وبعث الرسل، وأنزل الكتب، ونصب الموازين، ونشر الدواوين، وأقام سوق الجنّة والنّار !

قضيّة لا يقبل الله دونها صرفاً ولا عدلاً، ولا درهـماً ولا دينـاراً، ولا صـوماً ولا صـلاة، ولأهميتها جمع النّاس في صعيد واحد، وأخذ منهم ميثاقـاً غليظاً أنه وحـده سبحانه خالقهـم، ورازقهـم، ومُميتهـم، ومحييهـم، ثم بعد ذلك جـامعهم ليرى ما فعلوا بميثاق أخـذوه، ووعد قطعوه!

الدّرس الثاني :

حين جمع الله تعالى الناس على هيئة الذر
لـم يحدّثهم عن الرزق؛ لأنـه شـأنـه!
ولم يحدّثهم عن الذّرية؛ لأنهـا عطـاؤه!
ولم يحدّثهم عن الأجـل؛ لأنـه قضـاؤه!
وإنما عن التوحيد؛ لأنه شأنهم ووظيفتهم الوحيدة !

الدّرس الثالث :
خلق الله الأرواح البشريّة دفعة واحدة، وحفظها عنده!
فإذا أراد أن يجعل بشراً، أمر الملَك أن يبث الروح في الجسد، ثم يكتب رزقه وأجله ومآله!

الدّرس الرّابع :
خلق الله لكل جسد روحاً واحدة، تسكنه فترة تمتد بين مهمة ملكين: الأول وقت بثها في الجسد حيث يكون الإنسان جنيناً في رحم أمه، والثاني وقت نزعها من ملك الموت إذا انقضى الأجل وطويَ الكتاب!

الدّرس الخامس :
الأرواح لا تفنى كما الأجساد، فهي محفوظة في عالمها قبل البث في الأجساد.
ومحفوظة في نعيم أو عذاب بعد الموت!
وكل ما يقال عن تناسخ الأرواح والتقمص هو عَبَط فكريّ وتفسير جاهل، الإيمان به كفر بَواح، يتنافى مع صريح القرآن، وصحيح الحديث، وعقيدة المسلمين!

الدّرس السادس :
الإلحاد موضة!
أجل، موضة البشريّة التي تحبّ أن تنفلت من كلّ سلطة ورقابة، حتّى سلطة العظيم التي أوجدها من عدم!

كلّ نفس بشريّة شهدت في يوم من الأيام بالوحدانية لله، وأقرّت بربوبيته،
ثم لمّا جاءت إلى الدنيا أخلفت موعدها، ونقضت عهدها!

التوحيد غريزة بشريّة!

هذه النفس الضعيفة تقرّ بينها وبين نفسها أن قوة أكبر منها تسيّر هذا الكون وتتحكم فيه.
ولكنّ هؤلاء المرضى الذين لم ترضهم أقدارهم،
اختاروا زيّ الإلحاد ليظهروا بمظهر القويّ الذي لا شيء يسيّره حتى الشرك بحد ذاته، إقرار بغريزة التوحيد لله!
ولكنها غريزة مريضة وضالة،
فالذين عبدوا الأصنام عبدوها إشباعاً لحاجة الإنسان ليعبد قويا، ولكنهم ضلوا الطريق. وأخطأوا القوي!
والذين كانوا يرمون فتاة حسناء في النيل إذا طاف.
إنما كانوا يسترحمون قويا يعرفون أنه حرّك كلّ هذا،
ولكنهم بدل أن يستعطفوا المسبب ذهبوا إلى السبب!

الدّرس السابع :
يُظهر من كل ما سبق أن الله خلق الأرواح على حدَة والأجساد على حدَة
فهل يمكننا أن نقول أنّه لا يوجد علاقة بين الروح والجسد؟!
والجواب: لا

هنالك علاقة بين الروح والجسد لا شك، ولكنّها علاقة على مستوى عالٍ من التعقيد!
وتختلف هذه العلاقة باختلاف المرحلة التي يمر بها الإنسان، ففي عالم الذر لا يوجد علاقة بين الروح والجسد، ذلك أن الجسد ليس موجوداً أصلاً،
فالحديث عن علاقة بين أمرين أحدهما في عالم العدم يتنافى مع المنطق!

أما العلاقة بين الجسد والروح في عالم الدنيا موجودة، ونعرفها جميعاً، ونشعر بها في حياتنا اليومية!
فالعذاب والنعيم في الدنيا على الجسد والروح له تبع، فعندما نكون في جو لطيف، وطعام طيب، وأحبة يحفّوننا، إن الذي يتمتع هو الجسد. ولكنّ الروح تكون في هناءة لأنها تبع للجسد!
والعكس صحيح فلو أوثقنا إنساناً بالحبال وألقيناه على رمل الصحراء الملتهب، نحن في هذا نعذب جسده، ولكنّ روحه في كدر وغمّ لما بين الجسد والروح من علاقة!

أما العلاقة بين الجسد والروح في عالم البرزخ بعد الموت، فقائمة ولكنها على عكس ما في الدنيا:
فالعذاب والنعيم على الروح والجسد له تبع!
وأما في الآخرة، فالعلاقة بين الجسد والروح بالتساوي سواءً بسواء!
والله أعلم وأحكم.

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

كان عَدي بن حاتم الطائيّ على النّصرانيّة.
وَوفد على النبيّ ﷺ وفي رقبته صليب من فضة،
فسمعه يقرأ:

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

فقال له: لسنا نعبدهم!
فقال له النبيّ ﷺ: أليسوا يجعلون لكم الحلال حراماً، والحرام حلالاً فتطيعوهم؟!
فقال عديّ: بلى!
فقال النبيّ ﷺ: فتلك عبادتهم!

نصّ قرآنيّ يوسّع دائرة الشرك!
وتفسير نبويّ يخبرنا أن الصورة النمطيّة التي نعرفها عن الشّرك وهي اتخاذ الأوائل أصناما آلهة يفردونها بالعبادة والدّعاء ليست إلا ضرباً من ضروب الشرك لا الشرك كلّه!

والنّص على اقتضابه واسع الدلالة رحب المعنى،
وفيه عدة دروس تُستخلص:

الدّرس الأول :
نحن نعرف الرّجال بالحق ولا نعرف الحقّ بالرجال!
فالطريق ليس صائباً لأن من تحبه مشى فيه،
وإنما صواب الطريق موافقته للشريعة!

الدّرس الثاني :
الإسلام لا يقبل شراكة أحد في التّشريع !
وعندما أرسل نبيّه الخاتم، أرسله بدين يُنظّم أمور الدّنيا لأجل صلاح الآخرة،
فالقرآن دستور عمل لا آيات تُقرأ على الأموات، أو لتحصيل البركة، أو لختمة يتيمة في رمضان
إنه نظام شامل يطال كل مناحي المجتمع!
نظام سياسي: يحدد صلاحيات الحاكم، وطرق الإتيان به لسدة الحكم، وطرق خلعه، كذلك
ينظّم العلاقة بين الرعية وحاكمها، وينظم علاقة الأمة المسلمة بغيرها من الأمم، ويرسم هامش تعاملها لأنه يعرف أن المسلمين لا يعيشون وحدهم على جزيرة مهجورة!
نظام اجتماعي: ينظم الأسرة، وعلاقة الجيران،

وحق الطريق، وحقوق الناس على بعضها!
نظام اقتصاديّ: يحرم الربا، ويحل التجارة، ويحدد المواريث، وله حكم في أنتقال الأموال، ويبين حق الحاكم في بيت المال وحق الرعية كذلك!
نظام عقوبات: يأمر بالعفو أولاً، ويحض على مكارم الأخلاق، يسد سبل وقوع الناس في الحرام، ثم بعد ذلك يقطع ويرجم ويجلد، دين إنزال العقوبة بالفرد المخطىء لإصلاح المجتمع!
ولم يقم مجتمع بشري من آدم عليه السلام لقيام الساعة لم يكن له نظام عقوبات!

الدّرس الثالث :

إذا أحلّ القانون حراماً يبقى حراماً!

وإذا حرّم حلالا لا يبقى حلالا!
لا شراكة في التشريع، ومن أخذ بالقانون حقاً ليس له بالشرع جاء يوم القيامة سارقاً!

الدرس الرابع :

يجب أن لا نقع بما وقع به أهل الكتاب!
الحرام ما قالته الشريعة، لا ما قاله الشيخ!
والحلال ما حرمته الشريعة، لا ما حرمه الشيخ!
احترام العلماء واجب، ولكن اتباعهم على ضلالتهم، لا يعفي أحد من وزر الاتباع!

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾

عجيبٌ أمرُ هذا الدّين عندما تقسو عليه قلوب الرّجال

يُلينُ الله له قلوب الجبال!

عندما تُصبح القلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة،

يجعلُ الله الحجارة كالقلوب أو أشدّ رحمـة!

فتية الكهف،

والرّاهب في قصة أصحاب الأخدود،

والنبيّ ﷺ وصاحبه في الهجـرة،

التجأوا إلى الكهوف!

عندما يخذل الناس هذا الدين يحضنه الصّخر

ويأويه!

وحيثما كان دينُ الإنسان فهناك وطنه!

لو كان الوطن أغلى من الدين؛ لترك فتية الكهف

دينهم وبقوا في مدينتهم!

ولو كان الوطن أغلى من الدين،

مـا تـرك النبي ﷺ مكـة!

ولكنه وقف على مشارفها مودّعًا يوم الهجرة والدموع

في عينيه وقال لها :

"والله إنك لأحب بلاد الله إليّ ولولا أن قومك أخرجوني

ما خرجت"

مـــا أخرجــوه إلا لهـــذا الدين الذي جــاء بــه.
وقد عرضوا عليه الملك، والرياسة، والمال، والنساء!
فقال لعمه: والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني
والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته
حتى يظهره الله أو أهلك دونه!
فضاقت قلوب الرجال على الذي كان صادقهم الأمين
واتسع له غار ثور!

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

أبلغ قصة قصيرة في التاريخ،

براعة السّرد، وسحر الإيجاز!

قصة من هول أحداثها على اللغة كلّها أن تستنفر لتكتبها:

سمــــاء تمطر بلا كلل،

وأرض تنبع بـلا مـلل،

سفينة بُنيت في صحراء،

ثم تطفو في موج كالجبال حيث لا شيء إلا الماء،

تحمل في بطنها مستقبل هذا العالم:

القلة المؤمنة، ومن كل زوجين اثنين!

أنــاس يغرقــون، وآخــرون ينجــون،

وكوكب بأسره يغتسل مما أحدثه على ظهره ساكنوه.

كل هــذا لو قيــل بإطنــاب مفرط ما كــان عيباً!

ولكنّه القرآن!

هكذا براعة القصّ بما لا يدع مجالاً للشك أنه الله!

"قيل": هكذا بالفعل الماضي المبنيّ للمجهول

رغم أنّه موقف عزة وانتصار!

وحُقّ لمن كان بهذه القدرة والقوة أن يشير لنفسه في

معرض السرد
ولكنّه الله !

كل هذا الحـــدث الجلل،
كل هذا الانتقام الصارخ،
ولا يشير لنفسه!
الأمر عنده كاف ونون،
بكُنْ يفرق كوكب عن آخره، وبكُنْ يجف !

"وقضيَ الأمرُ"
بـراعـة الإيجـــاز مـــرة أخــرى،
وإلا فالأمر يحتاج لإسهاب الغالب !
التفاصيل التي يلتفتُ إليها المنتصرون حين يقصّون
أخبار نصرهم،
لا تدخل في حساب الله !
لا يحتاج لأن يروي تفاصيل الغرق ليخبر بقواه،
إنّه خطاب قرآني يترفع عن المُثلة رغم أنهم يستحقون!
ولكنّه سبحانه يريد أن يعلّمنا أن نسير نحو الهدف،
أما أولئك الذين يعترضون الطريق، فمجرد عوائق
علينا أن ننحيهم ونكمل المسير!

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾

كما قال: "كُتِبَ عليكم الصّيام"

قـــال: "كُتِبَ عليكم القتال" !

الجهاد إذاً عبادة كالصّيام والصّلاة !

وكما أنّ الصلاة والصّيام لا يُقبَلان إلا إذا أُدّيا بالطريقة التي أمر بها الشرع،

فالجهاد كذلك !

وكما لو أن رجلاً صلى الظهر خمس ركعات متذرّعاً بحب الله ورسوله، قلنا له صلاتك مردودة عليك، فإن حب الله أن تعبده بالطريقة التي أخبر بها نبيه!

ولو أن شخصاً صام رمضان أربعين يوماً، لقلنا له إن الله غني عنك وعن عبادتك

وهكذا كل عبـــادة تؤدى..

والجهاد كما سبق عبادة!

ومن جاهد لهذا الدّين بغير ما جاء به هـــذا الدين، فجهـــاده مـــردود عليـــه!

وكما أن الله لا يقبل ركعة خامسة في صلاة الظهر، ولا يثيب عليها بل يُعاقب!

كذلك كل دم حرام يُسفك باسم الجهاد هو دم حرام،
مهما كانت راية المجاهد!
ولأن الجهاد يتعلق بدم الناس وأموالهم وأعراضهم.
كان من أكثر العبادات حاجة للتعلم والتفقه قبل
الشروع به!
فالجهاد عن جهل يحوّل المجاهدين إلى سفاحين
وقطّاع طرق!
لأنهم سيستمدون أحكامهم من اجتهاداتهم، ومن
تقليد أعدائهم صاعاً بصاع!
ولم يكن الإسلام يوماً بحاجة لمن يملي عليه ماذا
يفعل أو كيف؟!

والوسائل الفاسدة لا تؤدي إلى الغايات النبيلة!

إن ما نراه اليوم من حال الجهاد يندى له الجبين!
كنا قبل أن يبدأ "بعض الجهاد الحديث" نخاف على
المسلمين من غير المسلمين،
اليوم صرنا نخاف على الإسلام والمسلمين من
المسلمين أنفسهم،
أو ممن يدّعون أنهم كذلك!
نحن نحب الله ورسوله مثلكم،
ونريد الإسلام كما تريدونه بل أكثر،
ولكنكم تقدمون أنفسكم بديلاً مجنوناً، وسفاحاً
لأنظمة مستبدة وسفاحة، ونحن لا نريد أن نستبدل
طاغية أجرد بطاغية ملتحٍ!

الظلم دينه واحد، مهما كانت هوية الظالم!

ولا نريد أن نستبدل يد الجلاد الفاجرة بيد جلاد متوضئة !

نحن ضد الجلاد لأي دين انتمى!

ونحن لا نكذبكم إذ تقولون أن ما تقومون به يُسمى جهاداً،

ولكننا نسأل أهو جهاد للإسلام أم عليه؟!

لأننا نؤمن أن الرب الذي أرسل نبياً كان يوصي جيشه بأن لا يقطعوا شجرة، ولا يهدموا صومعة، ولا يُروّعوا آمنا، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم،

يستحيل أن يقبل بما تقومون به!

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

ارتبطتْ حياةُ يوسف عليه السّلام بالقمصان،
قميصٌ استُخدم كذبة،
وقميصٌ استخدم دليل براءة،
وقميصٌ استخدم دواءً!

فأما الكذبة فحين ألقاه إخوته في الجب ووضعوا على قميصه دم شاة، وجاؤوا بالقميص إلى يعقوب عليه السلام ليقنعوه أن الذئب أكله، ولأنه لا جريمة كاملة، نسوا أن يمزّقوا القميص، وفاتهم أن الذئب محال أن يخلع القميص عن يوسف عليه السلام ثم يفترسه!

وأما دليل البراءة، فحين هرب يوسف عليه السلام من زليخة. جذبته ومزّقت قميصه من الخلف، ولما حار العزيز في تحديد الجاني إن كان يوسف أم زليخة. أنطق الله طفلا رضيعا من أقرباء زليخة. وطلب منهم أن ينظروا إلى القميص فإن كان ممزقا من الأمام فيوسف قد هجم على زليخة وكانت تبعده عنها. وإن كان ممزقا من الخلف فقد كان هاربا منها وهي تشده إليها، فلما نظر إلى القميص عرف براءة يوسف!

وأما الدواء فحين عاد أبناء يعقوب عليه السلام من مصر دون أخيهم بنيامين، بعد أن دسّ له يوسف عليه السلام الصواع في رحله ليستبقيه عنده، أخذ يعقوب عليه السلام، يبكي حتى أصيب بالعمى، فأرسل يوسف قميصه إلى أبيه. فلما وضعه على وجهه استعاد بصره بأمر الله

هذه قصص ثلاثة قمصان!

وفي هذه الآية قصّة قميص رابع!
لم يكن قميص يوسف وإنما قميص جده اسحاق عليهما السلام ولكن ليوسف معه قصة قديمة!
كان يوسف يتيم الأم فقد ماتت أمه راحيل وهي تضع أخاه الصغير بنيامين، وقد أراد الله أن يعوّضه يتم الأم فقذف حبّه في قلب عمته فائقة التي لم تكن تطيق فراقه تماماً كما كان لا يطيق يعقوب!
وقد عمدتْ إلى الحيلة لتستأثر به!
كان عند فائقة قميص أبيها اسحاق، وكان يوسف في زيارتها. ولما حان وقت عودته وهو ابن سنوات ألبسته القميص تحت ثيابه،
ولما أعادته إلى أبيه، وكانت جارة لهم، أخبرت القوم أنها فقدت قميص إسحاق،
فأخذوا يبحثون عن القميص،

وكان من عرف الكنعانيين وقتذاك أن السارق إذا سرق وقُبض عليه يصبح رقيقاً عند صاحب الشيء المسروق لمدة سنتين !

فلما وجدوا القميص تحت ثياب يوسف وأصرّت فائقة على تنفيذ القصاص الذي دبّرته وأبقت يوسف عندها عامين تحنو عليه وترعاه وهي جارة أبيه يعقوب!

وهذا هو سبب قول إخوته: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل!

فما الدروس المستفادة من الآية؟

الدّرس الأوّل :

الإنسان لا يرى الجذع في عينه ولكنه يرى القشّة في عيون الآخرين.

كانوا رجالاً، وتآمروا لقتل أخيهم الصّغير!

ثم حال بينهم وبينه أخوه، وأصرّ إن كانوا فاعلين أن يبعدوه بدل أن يقتلوه!

فاستبدلوا خطة القتل بإلقائه في الجُب ليجده السّيارة ويأخذوه بعيداً،

نسوا تآمر الرجل لقتل طفل،

نسوا إلقاءه في الجب،

نسوا كذبهم على أبيهم،

نسوا الحزن الذي جرّعوه إياه سنوات طويلة،

وبقوا يتذكرون ذنباً ليوسف وهو صغير، رغم أنه لم يكن له فيه يد!

هكذا هم النّاس على مرّ العصور، ذنبهم مغفور مهما كان كبيراً، وذنبك عظيم مهما كان بسيطاً، فاعرف نفسك ولا تنتظر منهم الكثير!

الدّرس الثاني:

فأسرّها يوسف في نفسه!

قالت العرب قديماً: سيّد قومه المتغابي!

لكي تعيش لا بدّ من التطنيش!

إذا أردت أن تواجه الآخرين بكل ما تعرفه عنهم فلن يبقَ بجانبك أحد!

تجاهل وتغافل ومرر وليس في هذا نفاق

ولكنّه أدب الأنبياء!

يوسف يسرّها في نفسه

ومحمد ﷺ يقول: إننا لنبُشّ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم، أدرسْ الموقف جيداً وقيّمه،

أحياناً لا بد من المواجهة،

وأكثر الأحيان لا بد من تمثيل دور الغافل،

على الحياة أن تستمر وبدون التجاهل لن تستمر أحياناً!

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

هل تساءل أحدكم لماذا خلق الله حواء من ضلع آدم عليه السلام، وكان قادراً على أن يخلقها من تراب مستقل كما خلق آدم؟!

ذلك أن أصل الخلقة تبقى في الكائن وإن اتخذ بعد ذلك شكلاً آخر،

فالملائكة مفطورة على الطاعة ولو كان عندها القدرة على المعصية. ما عصى منها إلا قليل، ذلك أن أصل النور الخير.

في حين أن الجن لهم القدرة على الطاعة والمعصية، فأغلب الجن عصاة لأن أغلب النار الشر، وما آمن منهم إلا قليل بمقدار ما نستفيد من النار!

لهذا السبب بالضبط، خلق الله حواء من ضلع آدم. لتبقى أصل الخلقة في الطبع،

لتبقى حواء تشعر أنها جزء من آدم، ويبقى آدم يشعر أن حواء قطعة منه!

إنه إتقان الخالق، والطريقة الحكيمة لانجذاب الرجل للمرأة، والمرأة للرجل من أجل إعمار الأرض التي خلقت لهما!

وانظر دقة التعبير: "لتسكنوا إليها"

اللام للتعليل: أي أن سبب خلقة المرأة من ضلع الرجل أن يسكن إليها. وسَكنها إليه مفهوم من السياق ضمناً،

ولم يقل لتسكنوا معها،

فالزواج أكثر من شراكة في البيت،

والزوجان يجمعهما أكثر من سقف،

وأبعد من سرير!

"لتسكنوا إليها"،

أي لتجعلوهنّ بيوتاً داخل البيوت، ومنازل داخل المنازل، فكما يأوي الرجل إلى بيته طلباً للستر، يأوي إلى زوجته، وكما يأوي الرجل إلى بيته طلباً للراحة، يأوي إلى زوجته، عندما خلق الله حواء من ضلع آدم جعلها في أصل الخلق قطعة منه، والفطرة تقتضي أن يعاملها على هذا الأساس، على أنها قطعة منه!

يحافظ عليها كما يحافظ على عينيه اللتين لن تستقيم حياته دونهما، وهكذا لن تستقيم حياة الرجل دون امرأة! وبالمقابل حين خلقها منه، فلأجل أن تستعذب ميلها وحاجتها إليه، كالغريب يحن لوطنه، كاليتيم يحن لأبيه،

هكذا أبدع سبحانه هذه الطريقة الحكيمة التي تكفل استمرار الخليقة بطريقة يستعذب فيها كلٌ من الرجل والمرأة ما يقوم به:

الرجل حين يحبّ هذه القطعة الرقيقة منه،

والمرأة حين تحبّ هذا الكل الذي تنتمي إليه!

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

الآية في إبراهيم عليه السّلام بعد أن قام بتحطيم الأصنام التي عكف قومه على عبادتها
وقصة إبراهيم أشهر من أن تُسرد مرّة أخرى!
ولكن وقفتنا معها الآن لغويّة بحتة،
وبالتحديد مع الفعل "حرّق"
فلماذا جاء النّص القرآني على لسان قوم إبراهيم ب "حرّقوه" ولم يأت ب "أحرقوه"
ألا تؤدي الكلمتان الدلالة نفسها؟
الجواب: لا!
أجمع اللغويون بلا خلاف على قاعدة مهمّة هي:
كل خلاف في المبنى يقتضي بالضرورة خلافاً في المعنى!
فلا يوجد كلمة تؤدي ذات المعنى حرفياً التي تؤديها كلمة أخرى وإن كنا نظن أنها كلمات مترادفة!

وإنما كان الترادف في اللغة لتقريب المعاني
وتحقيق الأفهام، ولكن من حيث الدلالة لا يوجد كلمتان تؤديان الدلالة ذاتها!
فما المعنى المغاير في "حرّقوه" عن "أحرقوه"
فعل "أحرق" الغاية منه فعل الحرق وهو إيقاد النار في الشيء لإفنائه أو إتلافه.

فعل " حرّق " الغاية منه إذلال الشيء المحرّق وما النار
إلا وسيلة !
وهذا هو بالضبط هدف قومِ إبراهيم : إذلاله !
فلو أرادوا قتله فقط لما تجشّموا عناء جمع كل هذا
الحطب!
فقد جمعوا الحطب في وادٍ سحيق،
وأنفقوا أياماً يجمعونه: صغيرهم وكبيرهم، ذكرانهم
وإناثهم..
حتى أن المُفسر المسدي ذكر أنّ المرأة في قوم
إبراهيم كانت إذا مرضت نذرت إن شُفيت أن تجمع
حطباً في الوادي المعد ل " تحريق " إبراهيم،
ومن شدة النار التي أحدثها كل هذا الحطب أنهم
قذفوا إبراهيم بالمنجنيق ليستقر فيها لاستحالة أن
يحملوه ويلقوه فيها!
وهذا المعنى "التحريق" المراد به الإذلال، ورد في
آية أخرى من القرآن الكريم تثبت بما لا يدع مجالا
للشك أن التّحريق يحمل في طياته معنى الإذلال وليس
مجرد حرق الشيء وإفنائه
فبعد أن رجع موسى عليه السلام من ميقات ربه،
ووجد بني إسرائيل عاكفين على عبادة العجل الذي
صنعه لهم السامريّ من الحليّ والقلائد التي كانت مع
نسوة بني إسرائيل قال له :

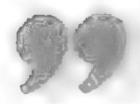
﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾

الفعل في الآية "حرّق" وليس "أحرق"

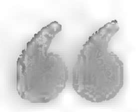
كان يكفي موسى أن يُحطّم هذا العجل المعبود وكان هذا كافيا وقد فعله النبي ﷺ بأصنام قريش يوم فتح مكة. ولكنّه استخدم "التحريق" ليري بني إسرائيل ذلة هذا المعبود،

فموسى بالضرورة أخبر قومه أن الله عزيز، وقد أراد بالتحريق أن يريهم ذلّة هذا المعبود الذي جعلوه عزيزا!

فالعجل نهاية المطاف جماد، ولكنّ التحريق فعله موسى تبعا للقاعدة: الجزاءُ من جنس العمل فلأنه جُعل عزيزاً مكرّماً معبوداً، أراد أن يريهم ذلّته!



في مواقع التواصل
إن لم يكن لكَ
حسنةٌ جارية
فعلى الأقل
لا تترك سيئة جارية
تموتُ أنتَ وتبقى هي!



﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ﴾

هذه الآيات من أعجب آيات القرآن الكريم مبنى ومعنى، والقرآن كلّه عجيب، سحر لغويّ في سبك العبارة، وفرادة في المعنى!

وكيف لا يكون كذلك؟ وبيان بعض النّاس يأخذ بالألباب كما قال النبيّ ﷺ عندما سمع كلام الزبرقان بن عدي يُدافع عن نفسه: " إنّ من البيان لسحراً "!

فإن كان هذا بيان الناس، فكيف ببيان ربّ الناس!

والسّامريّ هذا تعددت فيه الأقوال، وتوسّعت فيه التفاسير، تلاقت عليه تارة، واختلفت فيه تارة أخرى.. والذي أميل إليه بعد قراءات كثيرة عنه هو التالي:

السّامريّ هو موسى بن ظفر، من قبيلة في بني إسرائيل تُدعى "سامرة"، فنُسب إلى قبيلته، وضاع اسمه في نسبه. وهذا معروف في النّاس في كل عصر. فأبو بكر أشهر من عبد الله بن أبي قحافة، والجاحظ أشهر من

عمرو بن محبوب، والمتنبي اشهر من عليّ بن الحسين، وكذلك الأعشى، والشنفرى، والأخطلو وأبي تمام !

كان قريباً في السّن من موسى عليه السلام، فقد وُلد في سنوات الذبح التي كان فيها فرعون يذبح مواليد بني إسرائيل الذكور ويدع الإناث، بعد أن فسّر له المعبّرون بأن رؤيا النار التي رآها في المنام أنها التهمت قصره، بصبيّ يولد في بني إسرائيل يكون زوال مُلكه على يديه !

وكانت الحوامل في بني إسرائيل إذا جاءهن المخاض يذهبن إلى الجبال والكهوف ويضعن مواليدهن هناك، فإن كانت بنتاً عُدن بها إذ لا خطر على البنات، وإن كان صبياً تركنه هناك مخافة الذبح!

وقد أوكل الله الملائكة إطعام هؤلاء الصبيان ورعايتهم، وكان جبريل هو من تولى رعاية السامريّ ! وهذا هو السبب الذي كان وراء معرفة السامريّ بأثر دعسة فرسة جبريل عليه السلام والقبضة المذكورة في الآيات والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً..

أما لماذا لم تلد أم موسى ابنها في الجبال كحال نساء بني إسرائيل؟

فلأن الله قضى أن يكون هذا الصبيّ في الصّف الأول من المعركة لا في الخطوط الخلفية !

وإذا قضى الله أمراً سبب له الأسباب على ما

جرت به العادة، أو بخلافها لا فرق عنده، فـالأسبـاب جند من جنود الله يحقق بها أقداره، تجري على الناس ولا تجري عليه سبحانه!

ودارت الأيام، موسى يكبر في قصر فرعون، والسّامري يكبر بعيداً، وعندما حانت لحظة خروج بني إسرائيل من مصر كان السامريُ في قومه،

ولمّا تبعهم فرعون إلى شاطىء البحر، وشق موسى البحر بعصاه، ودخله ببني إسرائيل مجتازاً،

تبعهم فرعون يطلبهم بجيشه،

وكان جبريل على فرسه حيزوم بين موسى وفرعون، وقد تحرّك الرمل من أثر دعسة فرس جبريل كأنّ فيه روح، وهذه من بركات جبريل وقد وصفه الله بأكثر من آية بالروح. عرف السامريّ أن هذا جبريل قياساً لماضيه حيث كان يأتيه صغيراً!

ولم يلتفت بنو إسرائيل لهذا لعدم معرفتهم السابقة بهذا الأمر، وهو تفسير قوله تعالى:

﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾

المهم أنّ السامري قبض بيده على هذا التراب الذي كأن فيه روح وأخذه. ثمّ لما عبر موسى ببني إسرائيل أمر الله البحر أن يُطبق على فرعون وجيشه، ثم ذهب موسى لميقات ربه وخلّف أخاه هارون في قومه،

فما كان من السـامريّ إلا أن جمع حليّ نسـاء بني

إسرائيل وذهبهن التي اعتدن أن يستعرنها من نساء مصر وأخذنها في ذلك اليوم معهن،
وقال لهم هذا ذهب لا يحل لكن!
فجمع الذهب وأذابه، ثم صنع منه عجلاً، ونثر التراب الذي قبضه من أثر الدعسة فيه، فصار العجل يصدر صوتا كأنه خوار وفيه حياة!
وأمرهم السامريّ أن يعبدوا العجل ففعل غالبيته، إلا هارون وقلة من بني إسرائيل!
ولما عاد موسى أخذ العجل وحرقه، ونفى السامريّ من بني إسرائيل وأمر الناس بمقاطعته، وهو قوله تعالى ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾

فما الدروس المستفادة من الآيات؟!
الدّرس الأوّل :
موسى الذي ربّاه فرعون صار نبياً،
وموسى الذي ربّاه جبريل عبد العجل،
ليس مهما كيف تبدأ، المهم كيف تنتهي!

الدّرس الثاني :
قدر الله نافذ لا محالة،
لا يؤخره سبب، ولا يمنعه احتراز، ولا يعيقه سبيل!
فرعون ذبح آلاف الأطفال تحسبا أن يكون أحدهم هو الصبيّ الذي سيكون زوال ملكه على يديه.
ولما ولد هذا الصبيّ ربّاه في قصرما

الدّرس الثالث :

القلوب جند من جنود الله،

يربط عليها ليقضي بها أقداره،

ويرققها لتمضي بها مشيئته!

ربط على قلب أم موسى لتلقيه في النهر،

ورقق قلب آسيا لتحفظه وترعاه.

أخذه من أم، وأعطاه لأم!

الدّرس الرابع :

ليس في تربية جبريل للسامري غرابة أن كان كافراً،

من بيت المؤمن يخرج الكافر كما ابن نوح،

ومن بيت الكافر يخرج النبي كما إبراهيم ابن آزر،

وقد تكون الزوجة كافرة والزوج مؤمناً كما زوجتيّ نوح

ولوط، وقد بنى الله لآسيا بيتاً في الجنّة وكان زوجها

في الأرض يقول: أنا ربكم الأعلى!

ومهما قدّم العباد للعباد. فلن يُقدموا ما قدمه الله

للعباد، وها هو يُكفر لا يُشكر،

يُشرك به، ولا يُفرد بالتوحيد والعبادة!

وفي الحديث " قال الله تعالى: إني والجن والإنس في

نبأ عظيم: أخلقُ ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري؟!

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء

رضي الله عنه

الدّرس الخامس :

الناس ينسون سريعاً،

أنقذهم الله من فرعون،

شقّ لهم البحر، وأهلك عدوهم فلمّا صاروا إلى البر،

عبدوا عجلاً صنعوه!

فإن كان هذا حال الناس مع الله، فكيف حال الناس مع النّاس؟!

اصنع المعروف لأنك أهله، لا لأن الناس أهله!

والعاقل لا ينتظر رد الجميل

ما دام عند الله لا يضيع شيء!

ولكن إن أسدى إليك أحد معروفاً فعجزت عن أن ترده،

يكفي أن لا تنساه!

موجع هو العقوق، وإن كان الله يغضب لكفر النعمة، وعدم تقدير المعروف، وهو غني عن الناس، فالناس أولى بالغضب وهم فقراء لبعضهم بعضًا !

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

هذه الآية في مطلع سورة يوسف،

وسورة يوسف من زاوية أدبية هي سدرة منتهى

القصص القرآني، لجهة الحبكة القصصية التي تبدأ قبل أن تبدأ الشخصيات بأخذ أماكنها في المبنى الحكائي!

أو لجهة تكامل الشخصيات أساسيّها وفرعيّها بحيث يمكن تعميم ميزاتها على الشخصيات الحكائية في القرآن ككل، أو لجهة تنوع الرواة واختلاف زمان القص، والقصة / السورة لا يكفيها المجلدات الطوال للإحاطة ببنائها الروائي، سواءً في الحبكة، أو الشخصيات، أو الزمان والمكان، ناهيك عن سحر البلاغة وعمق الدلالة، ولكن الحديث الآن عن الشخصيات!

تنقسم الشخصيات في سورة يوسف كما جُلّ القصص القرآني إلى فرعية ورئيسة.

ولقد اعتدنا حين نمرُّ بالشخصيات القرآنية أن نتعامل معها على أنها شخصيات من لحم ودم، غافلين أن هذه الشخصيات تحمل في طياتها رموزاً ودلالات أبعد من بشريتها!

وفيها أفق أوسع ودلالة أعمق من قفص البشرية التي نسجنها فيه!

فالقرآن حين يحدّثنا عن يوسف إنما يريد أن نفهم الرمز الذي يمثله يوسف!

وهكذا أرى أن كل الشخصيات القرآنية برّها وفاجرها إنما هي مجموعة رموز ودلالات وقيم!

والمقصود بالحديث دوما ليس الشخصيّة بلحمها ودمها، وإنما برمزها ودلالتها!

فيوسف يرمز إلى العفة، وزليخة ترمز إلى الشهوة!

وهذا بالضبط ما أراد القرآن أن يحدثنا عنه صراع العفة والشهوة!

وهذا ما يفسر أن الله ذكر لنا في القرآن خمسة وعشرين نبياً وهم كما في الصحيح تجاوزوا المئة ألف!

فالذين لم يحدثنا عن شخصياتهم البشرية إنما حدثنا عن رموزهم التي هي بالضرورة موجودة في شخصيات قد حدثنا عنها وهنا يتأتى إعجاز الإيجاز!

وما ينطبق على يوسف / العفة،

وزليخة / الشهوة،

ينسحب على بقية الشخصيات:

فيعقوب / الأبوة

وأخوة يوسف / الحسد

وأخناتون/ الحكم والملك

والنسوة/ رفاق السوء

والعزيز شخصية متشعبة الزوج / البطانة

والصبي/ شهادة الحق

وصاحبا السجن/ عامة الناس

لهذا كان إبراهيم هو موسى وكان النمرود هو فرعون!

والطوفان، والضفادع، والجراد، والقمل، والدم،

والعصا، والفيل، والطير الأبابيل، وحمار العزيز، هي جنـود الله!

وقارون، زواج المال بالسلطة!

بل وقد تختلف الشخصيات في نوعياتها ولكنها تؤدي الرمز ذاته، فالنملة التي خافت على قومها جيش سليمان أن يحطموهم وهم لا يشعرون، ما هي في رمزيتها إلا الذي جاء من أقصى المدينة يسعى في سورة يس!

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ﴾

الدرس الأول:

لا تتوقع من الناس أن يكونوا ملائكة.

نبي من أولي العزم يغضب ويلقي الألواح،

لأنه نهاية المطاف إنسان!

الدرس الثاني:

النبلاء يسارعون إلى ترميم ما أحدثوا،

وها هو موسى يأخذ ما ألقى،

إذا أخطأتَ اعتذر

وإذا أفسدتَ أصلِح!

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ
إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

دأب بعضٌ يلوون أعناق النصوص القرآنيّة لينفوا أُميّة
النبيّ ﷺ فتارة يفسّرون " النبيّ الأميّ " نسبة لمكة
وهي عند العرب، وفي النصّ القرآنيّ: أمّ القرى
وتارة يقولون أنّه لم يكن أميّاً، ولكن العرب كانوا كذلك
وقد نُسب إلى قومه. وهذا اجتهاد في غير موضعه، ودفاع
مذموم عنه ﷺ وكأنّ أميته منقصة!

لقد نسوا أن الله لا يرسل نبياً فيه عيب يؤثر في دعوته،
فضلاً على أن يكون هذا النبيّ هو النبيّ الخاتم!
ولا أحد أعلم بمحمد ﷺ من قـــريش!
فهم عندما كذّبوه، اتهموه أنّه شاعر لأنهم كانوا يعرفون
أن الشعر لا يتنافى مع كون المرء أمياً،
فأغلب الشعراء الجاهليين كانوا أُميين يقرضون
شعرهم شفاهاً،
والذين كتبوا القصائد وعلقوها على جدار الكعبة على
القول الذي يعزو تسمية المعلقات بهذا الاسم إنما كتبها
القلة الكاتبة من العرب لا الشعراء أنفسهم!

ولكنهم لم يتهموه بانه هو الذي كتبه لأنهم كانوا يعرفون أنه لم يكن يقرأ ويكتب. والآية نص صريح في أميّته، ونفي قاطع لمعرفته بالقراءة والكتابة. ولكن الذين تعصّبوا له تعصبًا في غير موضعه، خلطوا بين مفهوم الأمية ومفهوم الجهل!

الأميّة نقيض الكتابة والقراءة،

والجهل نقيض العلم،

وقد كان النبي ﷺ أمياً ولم يكن جاهلا!

وهذه الاستماتة في نفي الأميّة عنه جهل برسالته، فهم حين يشترطون أن من تمام النبوة أن يقرأ ويكتب فكأنهم يعتقدون أن الله بعثه مُدرساً!

ولا أعلم قولاً معتبراً ينفي عنه الأميّة.

إنما هي عواطف محمودة. نشأ عنها تفسير مذموم. وتأويل مستغرب ليس إلا!

بل على العكس تماماً، فإنّ محطات كثيرة من حياته ﷺ تثبت أميّته.

فقد جاء في صحيح مسلم من حديث البراء عن صلح الحديبية عندما جاءه سهيل بن عمرو يفاوضه عن قريش، وكان ﷺ قد أمر صحابته أن يكتبوا بنود الصلح.

فلما أمسك سهيل الوثيقة وقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم.

قال لا أعرف هذا وإنما اكتب باسمك اللهم،

فقال النبي ﷺ لعلي اُكتبها كما قال،

ولما قرأ: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله مع قريش،

قال سهيل: لو شهدنا أنك رسول الله ما قاتلناك،

اكتب هذا ما اتفق عليه محمد بن عبد الله مع سهيل بن عمرو

فقال النبي ﷺ لعلي: امحها

فقال عليّ: والله لا أمحوها!

فقال له النبي ﷺ: أرني مكانها!

فدله علي على الكلمة، فشطبها بنفسه!

ولو كان يقرأ ويكتب لما احتاج أن يدلّه أحد عليها!

وما نُسب للشعبيّ شراحيل بن عامر الكوفيّ من قوله أن النبيّ ﷺ لم يمت حتى قرأ وكتب،

فقول فاسد لا يصح!

ولو سلّمنا جدلاً أنّه يصح،

فهذا حجة عليهم لا لهم!

لأنهم يُسلّمون أنه كان أمياً بداية،

ولو لم يكن، فما الداعي من ذكر أنه ما مات حتى كتب!

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

لطالما كان القرآن محطّ رحال الدارسين. بآياته ينيخون عقولهم. وبمفرداته يُعملون أفهامهم
منهم الفقيه الذي شغله الحكم الشرعيّ من النّص،
ومنهم المُقرىء الذي شغله صحيح التجويد،
ومنهم النحويّ الذي شغلته الجُمل استنباطاً وقياساً واستدلالاً. ومنهم البلاغي الذي شغله حسن الكناية، وسحر السجع، ورهبة التشبيه، ودقة الاستعارة. ومنهم اللغوي الذي شغلته المفردة تجريداً وزيادة ولهجة،
وكل منهم وجد ضالته!
فهذا القرآن بحر علم لا شواطىء له، به تُبحر العقول حيث لا مراسي إلا بقدر ما يستشف الدارس من النص!

أُثيرت قديماً مسألة مفردات القرآن هل هي عربيّة كلها؟
هل في القرآن لفظ غير عربيّ؟
ماذا عن لغات غير العرب الذين تأثر بلسانهم العرب وأثروا به، فتلاقح اللغات أمر لا مناص منه مهما بلغت اللغة من الجزالة والمتانة؟
ظاهر آيات القرآن أن كل مفرداته عربيّة خالصة.

وقد دافع الأوائل بشراسة عن هذه الفكرة،
وقد انقسم الناس في الأمر إلى ثلاثة آراء:
رأيان معتبران ورأي مريض ليس له من علم في الأمر، ولا يقول في النص القرآنيّ إلا ما أشرب من هواه تارة عن حقد، وتارة عن جهل!
الرأي الأوّل: ينفي وقوع غير العربيّ في القرآن جملة وتفصيلا، وهو رأي الشافعيّ، وابن جرير الطبريّ، وأبي عُبيدة معمر بن المثنى، والقاضي أبو بكر، وابن فـــــارس
وشدد الشافعيّ النكير على القائل بخلاف هذا!
الرأي الثاني: يرى وقوع غير العربيّ في القرآن وأصحابه جهابذة في اللغة والدين،
يُعتد برأيهم ولا يُشك فيهم مؤلفاتهم واستماتتهم في الدفاع عن هذا الكتاب، تشهد صفاء قلوبهم
منهم ابن هشام والثعالبي والسيوطي،
وهذان الرأيان هما موضع نقاش ويمكن التوفيق بينهما بخلاف القول الثالث المريض الذي سيأتي ذكره.
الصواب أنّه تعصّب في غير مكانه إنكار ورود غير العربيّ في القرآن، فشواهد وقوعه عديدة، لا سبيل لتجاوزها والقفز عليها ومنها :
أباريق، وسجيل، وإستبرق، ودينار، وياقوت، ومسك، وهي ألفاظ فارسيّة
الرقيم، والصراط، والقسطاس، وإبليس، وهي يونانية
جهنم، والملائكة، وأخدود، وهي حبشية

غسّاق، وهي تركية قديمة
مشكــاة، وهي هنــديــة
إذاً كيف نجمع بين القولين دون أن يتنافى ذلك مع كثير من الآيات التي لا تنفك تؤكد على عربيّة القرآن؟!
هذه المفردات مُعرّبة،
والمُعرّب في اللغة هو ما كان في الأصل غير عربي، فاستحسنه العرب، وضمّوه إلى لغتهم، وتحدّثوا فيه دهراً قبل نزول القرآن،
فأصبح بهذا المفهوم عربياً خالصاً!
إذ أن العرب حين عرّبوا لم يأخذوا المفردة كما هي ويضموها إلى لغتهم،
بل أجروا عليها تعديلات صرفية، وصوتية، تتناسب مع لسان العرب وأوزانهم في الكلام.

فمن قال ليس في القرآن لفظ غير عربيّ، فقد صدق على اعتبار أن هذه المفردات صارت عربيّة خالصة، وإن كانت بداية ليست كذلك وعندما نزل القرآن واستخدم هذه المفردات استخدمها استخداماً يعرفه العرب وقد استخدموه ردحاً من الزمن قبل نزول القرآن.

ومن قال أن في القرآن لفظ غير عربيّ على اعتبار أصل المفردة وما كانت عليه قبل التعريب فقد صدق

أيضاً، فهذا بحث في جذر الكلمة وأصلها لا تشكيك بعربيّتها، ولا لانتمائها للسان العرب قبل نزول القرآن!
أما القول الثالث المريض
فهو قول القائلين أن العرب لم يعرفوا هذه المفردات،
ولم يستخدموها في سياقاتهم اللغويّة،
وانما صارت عربيّة لنزول القرآن بها،
حيث استسلم اللسان لسطوة القرآن،
هذا قول ليس فيه حجة،
قائله إما جاهل أو حاقد!
وقريش الذي وصفهم الله ب " قومٌ خَصِمون "
يكثرون الجدل والحجة،
كانوا سيحتجون على عربيّة القرآن بهذه المفردات،
وهذا الذي لم يحدث أبدا، وهم أفصح العرب لساناً،
فيهم أساطين البلغاء، وفطاحل الشعراء!
على العكس تماما، لقد انصاعوا لسحر بلاغته وعربيّته الخالصة وهم أدرى الناس بالعربيّة
ولم يحدث أن غير قريش احتجت على القرآن بهذه المفردات!
يكفيك من ذلك تميم البليغة، وهذيل السامقة، الذين انصاعوا انصياع قريش للقرآن العربيّ الخالص!

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

الأصل أن يقول ربنا: لأصلبنّكم على جذوع النخل.

لا أن يقول: في جذوع النخل.

لأن الصلب يتم على ظاهر النخلة لا في باطنها،

فما البلاغة التي تحويها الآية؟

وما فائدة استبدال "في" بدل "على" على دلالة الآية؟

اتفق الكوفيون والبصريون أن حروف الجر تتناوب، بحيث يمكن أن يحل أحدها مكان الآخر،

وعند الكوفيين أن ميزة حروف الجر التناوب، ولا ضرورة أن يُحدث هذا التناوب إضافة في المعنى!

أما عند البصريين، فالأصل أن يحل كل حرف جر مكانه، وإذا حدث تناوب، فلزيادة في المعنى، وهذا قول سيبويه وهو الصحيح!

كان الصلبُ بوسيلتين :

الأولى أنه ثبّتهم على النخيل بالمسامير حتى دخل شيء من لحمهم في النخيل الذي صُلبوا عليه، والثانية أنه ربطهم بالحبال حتى اختلط لحمهم بجذوع النخل، فصاروا بهذا المعنى فيها لا عليها !

إنها براعة السبك لإيضاح الدلالة،
والدلالـة على وحشيـــة الصـــلب،
فـلم يكتـن مجــــرد تثبيت عــابر،
بل طلب صاحبه التمثيل بأجساد السحرة حين صلبهم!
والدّرس الأهم الذي يجب أن نتعلمه من الآية:
أن لا نفقد الأمل بأحد!
فالسحرة الذين جاؤوا لنزال موسى صباحاً،
صُلبوا مساءً ولم يتركوا دين موسى!
وأن لا نفرط الأمل بأحد،
فالذين عبروا مع موسى البحر، ما لبثوا أن عبدوا العجل!
القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف شاء، ويهدي الله لهذا الدين رجالا ما ظنّ أحد أن يهتدوا!
عمر بن الخطاب الذي كان يذيق المسلمين صنوف العذاب؛ صار فاروق الأمة!
وعلى يديه تهاوت أعظم امبراطوريتين في التاريخ فارس والروم.
وخالد بن الوليد الذي قلب نصر المسلمين هزيمة يوم أحد؛ صار سيف الله المسلول!
وعكرمة الذي أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة؛ استشهد يوم اليرموك وهو قائد ميمنة جيش خالد!
إن هذا الدين لمن صدق، لا لمن سبق!
وإن الإنسان بالصدق ليفوق أهل السبق!

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

سبقَ وتحدثنا أن الكوفيين والبصريين اتفقوا على أنَّ حروف الجر تتناوب، أي يحل بعضها مكان بعضها الآخر، وأن الكوفيين قالوا أن التناوب ميزة في حروف الجر، وحلول أحدها مكان الآخر لا يُشترط به إضافة دلالة جديدة على الكلام، بينما يرى البصريون أن التناوب يلزمه زيادة في الدلالة وهو قول سيبويه تحديداً وهو الصواب!

كان من المفترض أن يقول ربنا: ونصرناه على..

لا أن يقول: نصرناه من..

فما الذي أضافه هذا التناوب على المعنى؟

الآية تتحدث عن نوح عليه السلام.

والمعلوم أن هلاك قوم نوح كان غرقاً بعد أن أمره الله بصنع السفينة وأن يحمل عليها من كل زوجين اثنين!

وكلمة النصر تقتضي أن يكون هناك مواجهة.

وهذا ما لم يحدث!

إذا نصرناه هنا بمعنى أنجيناه، والمواجهة إنما كانت بين قومه والماء، وخرج هو ناجيًا معافى،

وإذا كان جند الله "الماء" قد كسب المواجهة،

فإن الماء كان استجابة لدعاء نوح،

فنوح إذاً شريك انتصر بالنتيجة ولكنه بالفعل نجا !
فغيّر الله الخطاب، وبدّل الفعل أنجى، بالفعل نصر،
وبدّل حرف الجر بآخر تاركاً لنا أن نكتشف سحر
الدلالة في النّص القرآنيّ!

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾

هــذا أبلـغ تشبيــه في القــرآن،

والقرآن كلّه أبلـغ من كلّه !

ذلك أن التشبيه في اللغة إنما وُجد لتقريب المعنى،

وتقريب المعنى في حال الشيء المجهــول،

أن يتم تشبيهه بمعلوم!

فيقيس الإنسان ما يعرف على ما لا يعرف،

فيتجلى له المعنى،

ولكنّ الله شبّه مجهولاً بمجهول !

والغاية ليس تعقيد المعنى، وإنما تعمّد إبقاء الأمر مجهولاً، والإنسان يخاف مما لا يعرف!

والقصد من الآية التخويف !

والنص القرآنيّ لا يتعمد الغموض، لأنه في الأصل بيان للناس، ولكن تعمّد جلّ شأنه تعقيد الصورة زيادة في الترهيب،وخطابه جلّ شأنه موازاة بين الترغيب والترهيب. ولما كانت الصورة التي رسمها الناس في أذهانهم للشياطين أنها صورة قبيحة. وأقبح ما في الشيء رأسه؛ وفيه الوجه! لذلك ترك لنا الأمر غامضاً، تركنا نتخيل شجرة مجهولة، تطرح ثمراً شكله مجهول. ولكن قبحه متحقق في النفس!